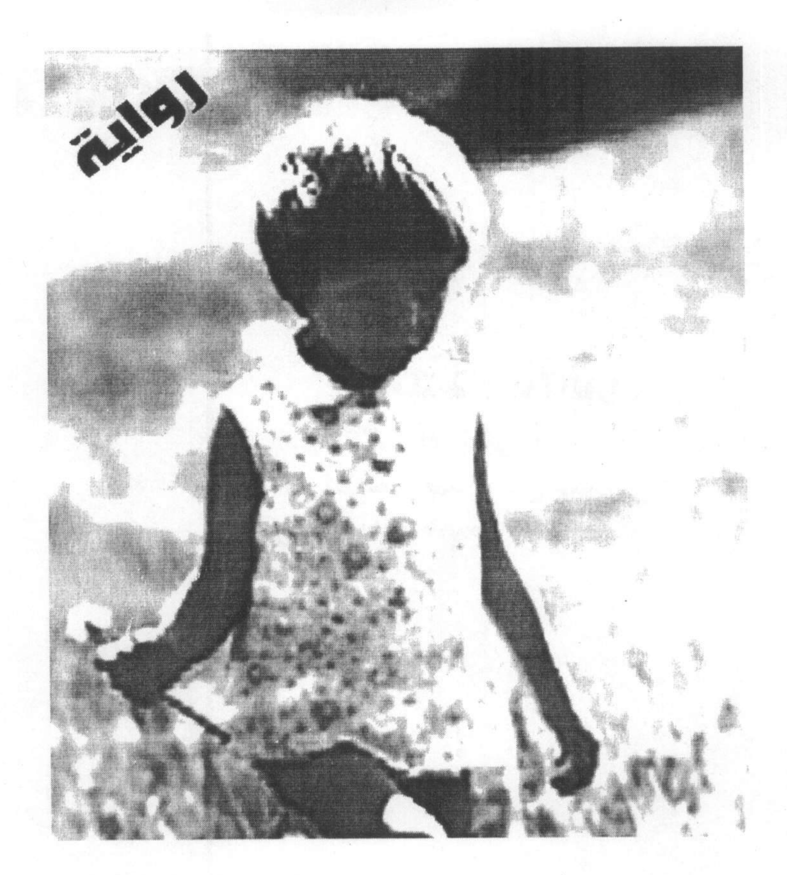
لماذا تبكي..؟



تأليف : داسي روكزاني
ترجمة : محمد رمضان حسين



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: لماذا تبكي..؟

اسم المترجم: محمد رمضان حسين

رقم الإيداع : ٢٠١١/٥٨٢٩

الطبعة الأولى ٢٠١١



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الترجمة العربية الكاملة لرواية

Warum hast du geweint ?

Von: Dace Ruksane

Aus dem Lettischen von: Matthias Knoll

نشر الأصل باللغة اللاتيفية في "أثينا" للنشر، بمدينة ريجا ٢٠٠٣
العنوان الأصلي للرواية باللغة اللاتيفية:

Kapec tu raudaji ?

تمت مراجعة الترجمة إلى اللغة الألمانية بواسطة المؤلفة
نشرت الترجمة الألمانية في "آمان" للنشر، هامبرج ٢٠٠٧
عدد الصفحات: ٢٥٥، المقاس: ٢٠.٥×١٤ سم، الوزن: ٣٧٥ جرام
ردمك - ١٣ : ٩٧٨٣٢٥٠٦٠١٠٦٧
ردمك - ١٠ :٣٢٥٠٦٠١٠٦٣

المؤلفة في سطور:

داسي روكزاني؛ من مواليد لاتفيا ١٩٦٩، ابنة لأحد المزارعين، درست علم الأحياء والطب قبل دخولها إلى المجال الإعلامي والأدبي في منتصف التسعينيات كمعدة برامج وإعلانات، "المشاهد الجريئة" كانت رواياتها الأولى، عملت كرئيسة تحرير لـ "ليليت" إحدى أوسع المجلات النسائية انتشارًا في لاتفيا، عام ٢٠٠٣ بين ريجا وأثينا أنجزت "لماذا تبكي" ثالث أعمالها، تُرجمت إلى الألمانية بواسطة المترجم الألماني ماتياس كنول وصدرت طبعتها الأولى بالألمانية عن دار آمان في فبراير ٢٠٠٧.

المترجم في سطور:

مُحَمَّد رَمَضان حُسَين، من مواليد المنيا ١٩٨٤، حاصل على ليسانس اللغات والترجمة ٢٠٠٧، مترجم ويكتب قصيدة النثر، صدر له "احتراق تحت المطر" بالاشتراك مع آخرين أبريل ٢٠١٠، له تحت الطبع ترجمة كاملة لكتاب "الصين تتحدى" تأليف: فولفجانج هيرن.

Für meine Töchter:

Agnese, Adele und Annemarija

إلى بناتي:

أجنيسي، وأديلي، وآنيماريا

تبكي لأنك لا تملك المقدرة على حكي ما شاهدته، أو وصف ما شعرت بسببه بالرعب الشديد، فعند كل محاولة منك لوصف الفزع غير المحتمل يفسر ذلك على أنه أضغاث أحلام، حيث تتحول الرؤية الهيستيرية من أفكار نظرية إلى مشاهد ذات تأثير واضح حيث تزداد في تلك اللحظة قلقا سرعان ما يرتقي بداخلك إلى خوف مثل الأطفال.

جونتيس بيريليس (مجلة: دير شبيجل)

تستغرق الطائرة من موسكو إلى مدينة مينرالني ثلاث ساعات، تفوح رائحة سيئة وتتسلل إلى ساحة انتظار الميناء الجوي الروسي بأكمله وتعج في الأنف أبخرة كريهة طوال الوقت، فأنا ما زلت حتى الآن أشعر وكأني الطفلة المدللة في بيت والدي، أستنشق في الصباح عبير زهور الربيع، حيث تتساقط حبات الياقوت اللامعة على حواف الشبابيك، وتصطف فروع الأشجار وأغصانها في سلاسل رائعة تبدو كما لو كانت مضيئة.

في فصل الصيف تكثر المزهريات ويكثر تواجدها في البيت، وتفوح منها الروائح الزكية، مزهرية واحدة تعد كافية لملأ البيت كله عبيرًا طيبًا، ولا تزال أمي تشتري منها المزيد ، تمتلك عمتي الصغيرة إحدى محلات الزهور على ناصية الشارع، حيث تعرض فيه الأنواع العديدة من الزهور ذات السيقان الطويلة والقصيرة أحيانًا تمنح بعض زبائنها تلك المزهريات بدون مقابل، ودائما تشتري أمي الزهور لمنزلنا وللهدايا بسعر مخفض من عمتي.

عندما يأتي إلينا ضيوف فغالبًا ما يصابوا بصداع أو رشح في الأنف بسبب الرائحة الثاقبة للزهور في كل مكان من منزلنا، ولكن هذا هو منزلنا ولا أستطيع تصوره بدون روائح الزنابق التي تفوح منه طوال فصل الصيف، إن أمي لا تسوي حشائش الحديقة أو تجز تربتها لذلك تتلون أرنبة أنوفنا باللون البرتقالي الفاقع وتتلون أرفف الشبابيك بألوانٍ مختلفة، في

الخريف تصير الزهور أكثر بهجة وجمالا، وعندما تأتي شهور الشتاء تختفي الروائح الزكية للنجيلة الناعمة وتحل مكانها رائحة أخرى مريرة تقتحم حتى دولاب الملابس، في الخريف تعطر كل النساء بيوتهن بالشغف المكبوت واللوع الملموس تتلألأ الزهور أسابيع وأسابيع وفي الشتاء تصبح في كل حجرة مزهرية بنفسج وعندما تقترب منها لتشمها تشعر كأن رائحة مسك قوية تحيط بك ويبقى أثرها لفترة طويلة دون أن تخرج من الأنف؛ نعم أشعر كأني أشم رائحة المسك بالضبط، رغم أني لا أعرف شيئا عن المسك ولم أشم رائحته أبدًا ولكنها تشبهه بشكل أو بآخر، أو هي مثل رائحة الطعام الطازج المحبب للنفس، وأشعر بها أحيانًا وكأنها حيوان صغير خفيف الحركة، أو ربما تبدو في صورة راعي بقر مبتل بالعرق على ظهر حصانه، أو ربما شيء آخر غير هذا كله من تلك البلدان الأجنبية؛ فالبلدان الأجنبية بالنسبة لي هي كل بلد لا يمكنني رؤيته، إن الشتاء بالنسبة لي: "سرٌّ ملون"



لقد راودتني نفسي أكثر من خمسين مرة على تناول زجاجة فانتا؛ فالميناء الجوي لمدينة شيرمنتو يبدو كأنه المكان الوحيد في الاتحاد السوفييتي بأكمله الذي يمكن للمرء فيه أن يشم رائحة البرتقال الأصلي بل ويتذوق طعم عصيره أيضا، فعندما ترى مجموعة برتقالات تجد أنه لا يخطر على بال أحدهم أن يأخذها أو يصنع منها عصيرًا وذلك من كثرة انتشاره هناك. وبعدما تناولنا العصير ببطء وباستمتاع شديد لدرجة أننا لحسنا أصابعنا بعد انتهائنا منه؛ قمت أنا وأختي صوفيا بعمل مقلب حيث أننا وضعنا على أفواهنا مسحوقًا أبيض يشبه أسنان القوارض في البداية جف الفم؛ وبعد ذلك امتزج البياض الليفي باللعاب فاحتفظت بقطعة منزلقة على طرف لساني، وفجأة دخلت أمي الحجرة قائلة:

- "لقد تركتموني هنا بمفردي فقمت بتحضير الجاتوه لكم!!".

وأخذت القسط الأخير من الراحة ولم أعرف كيف كان مذاق البرتقال..؟؟

فهل الفانتا، تشبه كل عصير البرتقال؟

أم هل العالم كله يشبه رائحة المسك...؟؟

ولهذا السبب أعتقد أنه يمكنني تناول زجاجة أخرى من الفانتا بعد نصف ساعة فقط، وبعد أن أخذت الزجاجة الساخنة تسللت بحذر إلى مكان ساحة الانتظار مرة أخرى؛ وسكبت هناك هذا الشراب المثير للعجب ولكن ديانا كانت تتابعني عن كثب فقفزت مسرعة نحوي ولوحت لي بيديها قائلة: "يمكنني أن أراهنك على أنه يمكنني الجري لمسافة اثنين كيلو متر من هنا ودون أن تسقط اللفافات من فمي"، وها هي ديانا في الصف وأنا بصحبتها وبحوزتي هذا الكيس الممتلئ حتى آخره بالماركات، نعم هي جديرة بالفوز دون أن يلحق بها خدش بسيط في هذه الساحة الهائلة التي يكسوها اللون الأخضر الفاقع الذي يشير إلى الفقر المتحرش بهذا المكان، وفي هذه اللحظة اتخذت ديانا خطوتين للأمام.. خطوتين محكمتين؛ فالآن من الممكن أن نقول: وداعًا للمقعد الذي كنا نجلس فيه فثمة شخص سمين هناك يجلس على مقعدنا ويضع شنطة جلد صناعي سمراء اللون على حجره وفجأة وهو جالس وإذ به يتجشأ بصوت مسموع، فاستنكرت ديانا هذا الفعل قائلة له بحنق شديد:

- "ألا تستحي..!!".

وبلغ من شدة اشمئزازها منه أنها كادت أن تقيء لكنها عادت ثانية واستطاعت أن تتمالك نفسها تجاه هذا الرجل البدين ذي اليد المغطاة بالشعر الأسود الخشن... فديانا تمسك بإطار الكيس وتنحني إلى الأمام وتلهث في اتجاهي إلى الخلف في وضع يشبه علامة الاستفهام، فهي

لا تبكي ولكنها ترتعش وتظهر بعض نقاط العرق اللامعة الشفافة على أنفها، وسرعان ما شربت زجاجة الفانتا بدون حتى أن تشعر بمتعة المذاق الفوار الذي تسببه المياه الغازية عند نزولها بالحلق، وساعدتها على حمل الأمتعة ونقلها إلى مكان آخر بجوار الباب.

جففت ديانا حبيبات العرق الصغيرة بطرف كمها ثم واصلنا السير والانتظار لبضعة ساعات أخرى، وظللنا ندور متعجبين حول تمثال لينين، ثم تمشت ديانا قليلا في الطريق ولم تعاودها تلك الآلام مرة أخرى، وبعد انتهاء الفانتا وقف الصف خمس مرات أخرى لذلك كان لزاما علينا أن نتوقف عشر مرات أخرى أيضا.

ففي النهاية الفانتا ليست شيئا ما مثل أي شيء كما قال لينين[1]، ولكن الفانتا هي الفانتا، فإن لنكهة البرتقال مذاق جميل لا يقاوم..!!



إن الغجر لديهم إمبراطوريتهم الخاصة داخل الميناء الجوي الروسي، فقد قاموا بوضع الحواجز في شكل نصف دائرة عند المداخل، ويرقصون في داخلها مثل الثيران الهائجة، الرجال في دائرة واسعة للخارج، وبداخلها دائرة أخري للنساء أقل اتساعا والأطفال في المنتصف بعيونهم اللامعة ووجوههم الكالحة من شدة الفقر، ومن وقت لآخر تخرج النساء ليقمن بجمع بعض الأموال من المسافرين المحسنين؛ بعد أن يكن قد زَيّن وجوههن بابتسامة زائفة قد أجدن رسمها على شفاههن، للغجر عالمٌ خاص مميز وغامض؛ لا تستطيع النفاذ إليه إلا من خلال ثقب إبرة، يمكنك التعرف عليهم من خلال أحاديثهم الشخصية المتداولة بينهم؛ أو من خلال تصرفاتهم

(١) لينين: فلاديمير أليتش أوليانوف (١٨٧٠- ١٩٢٤) ثوري روسي، كان قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي. لينين رفع شعار "الأرض والخبز والسلام." [المترجم].

وسلوكهم الشخصي عند الاحتكاك المباشر بك، فأنا عن نفسي لا أتمنى أن يأتوا إليّ لعرض خدماتهم؛ كعمل بعض الأعمال السحرية للشباب المرغوب فيهم وهكذا، فأنا أرفضهم لأنه ليست لدي القدرة على مقاومتهم، فمنذ زمن غير بعيد دخلت محطة أوتوبيس ورأيت هناك امرأة غجرية وقد انثنى جسدها للخلف في شكل قوس، وعندما رأتني وهي في هذا الوضع أخذت تحدثني وتطلب مني أن أفضي إليها بكل أسراري وطلبت منها في تلك اللحظة أن تعدل وضع قامتها حتى لا نصير فرجة للغادي والرائح؛ ولكني وجدتني أذوب في كلماتها مثل الدبور الغارق في زجاجة بيرة، وبدأت أشعر بحماس شديد لكلماتها ورغبة في استمرار الحديث معها خاصةً بعدما أعطتني حلوى لذيذة المذاق تشبه طعم البسكويت السائل، ومن شدة لذتها لحست ما تبقى منها على حافة شفتي وكانت قد بدأت تنساب على ذقني كحبات الذهب السائل.

- "...والآن، سيصبح لديك شاب أبيض، ذو شعر مجعد، وقلب ملتهب، يحبك وتحبينه، وسوف تعيشون في بيت أبيض على البحر، وهناك سوف تكررين ما حلمتِ به، فالفعل حسن وأنا أعرف.. أنا أعرف...!!"

وفجأة أفقت من ذهولي فأسرعت الخطى نحو الأتوبيس، فأصبت بدفعة قوية في المرفق ولكني واصلت الصعود.

- ليس حسنًا أن تشتبكين مع امرأة عجوز

- ولكن ينبغي على العجائز أيضا أن يتصرفن بحكمة أكثر، لقد لقيت مشاق كثيرة وأنت تخدعينني.

- هذا ليس حسن؛ فحياتك من الممكن أن تنتهي الآن وهذا يتوقف عليك!

- قفي.. قفي...، ما هذا إني أرى حزنًا سيصير في بيتك، ما هذا الحزن؟ هل في عائلتك شخص يدعى كارلس..؟ أجل.. أجل...، فقد رأيته

إنه كارلس، وهو للأسف لن يعيش طويلا فالمرض المزمن سوف يقضي عليه، والسحابة السوداء سوف تخيم على بيتك بأكمله، وسيأتي أهل السوء، وسيأتي الموت، فكارلس يتعجل منيته، ويقابلك بنظره سيئة، ويضغط عليك الفرار المخيف...

أي.. أي.... قلتِ أنه ليس حسنًا الاشتباك مع امرأة عجوز ولكن ليس حسن كذلك خسارى خمسة روبلات، فليت كارلس يبلغ شاطئ الأمان

أي.. أي...، وحتى هذه اللحظة لم يخطر على بالي مطلقا وجود أسرة لاتيفية هناك، فليته لا يوجد أقليات يا كارلس، فلقد تيقنت بالانحدار الشديد إنها تتحدث عن والدها، فبحثت بلهفة عن كيس النقود داخل مكتبي، ثم سحبته خارجًا وأوصلته بأصابع مرتعشة إلى صاحبة الفضل عليَّ وصانعة الجميل.

- آه.. آه... أتريد أن تخدعني مرة أخرى هذا غير حسن، ألم تعلم على الإطلاق لا يكفي أن تنحني فقط عن الهروب، أتعرف مدى الجهد الذي تطلب مني بذله؟ عمل يومين بأكملهما، لا.. لا...

- "ترك يدي ممدودة له وانصرف خارجا"

- "كم عدد تلك المرات"



لقد تعذبت بصوت مسموع، أعطه كل ما تملكه، فأخرجت كل شيء من الكيس، كل ما أملكه من ثروة طائلة، أربعين روبل، عمل أسبوع بأكمله في مزارع بنجر السكر؛ أيدي مشققة، وأظافر متسخة، وعيون ملؤها التراب والأرق، فالفريق الأسرع في تطهير الحقل من الحشائش كان يتقاضى أجرًا إضافيًّا.

- نعم، بالفعل سوف أحاول فعل شيء ما ولكن لا أعدك، فأنت فتاة غير مؤدبة، لكن اذهبي الآن إلى كارلس فربما تكون هذه هي فرصتك الأخيرة لرؤيته، وها أنا لا أبكي ولكني أقف وأهذي بكلماتي هذه لأني أشعر كيف صارت الحمى وإلى أي مدى ستنتهي.

- "...سوف تحصلين على الشاب الذي تريدينه، ولكنك ستفقدينه مرة أخرى لتذهبي بعد ذلك سبع مرات إلى الجحيم..!!"

وقبل أن يبزغ النور سوف تخرج الكلمات الأخيرة في نصف الطريق، فينبغي أن أنام داخل الأتوبيس، فالأتوبيس لا يشبه باقي الأتوبيسات، ووساوس هذا الشاب تقول له: ينبغي عليك مراعاة والدك وتدبر أمورك الشخصية، ولتغلق الباب والشباك وتغطي المدفأة واملأ زجاجة بالبنزين وأحش عنقها بخرقة قماش، ولتهدد الطيور في السماء ولتتجاسر على الاقتراب منها، آه من هذا الشاب، فوالده فاقد للبصر، ويرتدي ثيابا بالية ممزقة، وأمه لا تكاد تبين الخيط من الإبرة، يا إلهي الكوع مثقوب؛ فصرخت بصوت عال عندما صعدت إلى الأتوبيس، وغيرت القول وأردت أن أرد بأي كلام لكن المفاجأة أخرستني، فينبغي علي الآن أن أخلص أبي وأكون شجاعة، وأن أتابع حدوث كل شيء، فعندما يغادر الأتوبيس ساحة مدينة ريجا[1]، أبدأ البكاء مع نفسي بصوت منخفض، فيدي اليمنى شددت قبضتها على كيس النقود المفتوح؛وفي الأخرى يتسرب ببطء شيء دهني لزج ذو رائحة كريهة، من خلال الأصابع اللينة وامتد إلى الساعد حتى نهاية الكتف، ضحك أبي كثيرًا من قصتي تلك وها أنا أتحاور معه لأسليه وليبقى أمر الأربعين روبل سري.



(١) ريجا: عاصمة جمهورية لاتفيا. [المترجم]

آه لقد تذكرت شحوب الجفون الجميلة التي رسمتها من وحي الخيال في قبة البوابة بالقرب من المحطة، "الشكل البولندي للفتاة ذات العيون الجميلة وأنت ستكونين أجمل من الجميع"، فأنا أنفقت خمسة عشر روبل على جمال بشرتي، فمنذ عامي الخامس عشر وأنا أتخيل شحوب الجفون الرائعة، فقد قمت بمزج مساحيق ذات ألوان زرقاء وخضراء وروز فاتح، فالجنون هو أن تحاول في البداية أن تحصل على لون من جفوني، فأوقفت ذلك وظللت أضحك كثيرًا، إلى أن رد لي أبي مبلغ الخمسة عشر روبل وعلاوة على ذلك أهدى لي شجون الجفون البولندية الأصلية الزرقاء والخضراء والروز مقابل ستة روبل للجميع، وفي اليوم التالي أسقطتهن على الأرض بطريقة غير حسنة فأنا الآن لا أملك في يدي غير التراب الأزرق والأخضر والروز الفاتح، وعانيت من استخدام القطرة المهيجة للعين لإزالة الآثار من على الجفون.



حاولت في البداية ألا أصوب النظر نحو هؤلاء الغجر، فإن الأرمن قوم بسطاء وأصحاب لحى صفراء وغالبا لا يقومون بأي تصرف فيما يحدث حولهم إلا إذا طلب منهم هذا، ممكن أن أثبت بصري من أول نظرة لأنهم لن يلاحظوا ذلك، فهؤلاء غجر قادمون من مدينة تيا، ولكن هل هذا ممتع أن يصوب شخص نظره إلى شخص آخر فيعريه من خلال نظره في حين أن الآخر لا يملك المقدرة على النظر إليه بالمثل، وفي الدقائق القليلة التالية اختيرت صاحبة الأنف المسحوبة الجميلة ذات التقسيمات الحسنة التي تورث ذكر الحنان التي تظل تنقص من جيل لآخر والصفات الجسمية الأخرى من قوة وطول للأعناق مما قل وندر وجوده.

وفي موسكو قلما ترى لاتفي[1] واحد يضحك، فالناس هناك غالبا ما يضحكون بسبب اللامبالاة...!!



يا للهول.. فالمساعدان سريعان ونشيطان ولقد حذرنا ألا نراقبها أو ننظر إليها، فالأكياس ينبغي أن توضع في جيب داخل الجاكت، آه من هذا الوغد الذي أتى بهذه الفكرة، من قال: إن النساء لا يحتجن لجيوب داخلية في ستراتهن، آه.. فهل رأيت هذا الرجل البائس ذا الأجر المسلوب الذي يكنس الشوارع، ولكني لا أقيس هذا الأمر بالنسبة للنساء ففي منطقة المقاومة الشعبية للريونز يتم حجز دولاب كامل لحقائب السيدات حقيبتان منهم تخصاني، إحداهما لونها بني غامق وهي جميلة ولكني أرغب دائما في تعليق الحقيبة الصفراء فاقعة اللون التي أهدتها لي أمي في عيد ميلادي الثاني عشر، ينبغي أن أذهب للحمام بسرعة؛ فديانا قادمة في الطريق إلينا، ولكن عندما يفكر المرء في زجاجة الفانتا يرجع بسرعة، فأنا أضغط على كيسي وأبطئ الخطى نحو الجيب الخارجي الذي أخبأ فيه الجورب الصغير الدافئ حيث ينقطع حبل الأفكار في الحمام، فكل من الأكياس يزن حوالي سبعين كيلو؛ وزني مرة ونصف، لذلك فأنا أحتاج إلى عمل دؤوب بلا يأس لكي أنتج فقط نصف المسافة.

وحتى لو استمت في سبيل الحصول على قطعة الأرض تلك فإنني في النهاية سوف أتركها لورثتي، يا ديانا الصغيرة قفي من فضلك يا صغيرتي، بسرعة من فضلك، تستطيعين الإسراع أكثر، فأنا أحتاج إلى الجورب الدافئ من حقيبة الظهر، خمس زجاجات عصير برتقال ليست شيئًا بسيطًا

(١) لاتفي: الشخص المنتسب إلى جمهورية لاتفيا إحدى جمهوريات البلطيق الثلاث والتي كانت تابعة للأتحاد السوفييتي وانفصلت عنه قبل انهياره. [المترجم]

يمكن الاستغناء عنه كما قال لينين - فعندما يوضع المرء في تابوت زجاجي لن تفوح منه الرائحة النتنة، يا ديانا تعالي، من فضلك تعالي يا حمقاء.. يا بقرة... افعلي هذا الآن..!!

- "ينبغي عليك الذهاب إلى دورة المياه...!!"

هكذا قال لي الغجري الروسي الأصل؛

- "اذهبي بسرعة وأنا سأنتبه إلى حقائبك وسوف أحملها عنك"

لا وقت لدي للشك، بعد ذلك خرجت مني ابتسامة شكر عابثة وقفزت في خطوات سريعة بدون تعثر أو زلل، وانتقلت في قفزات تشبه خطوات فرس الشطرنج عبر المجموعة سيئة الحظ والتي لم تجد لها مكانا للجلوس، وبعد التخلص من (كريتن) المقيت ذلك الذي فرض نفسه علينا ليتناول معنا فطيرة البسكويت، ركضت وركضت وكنت قد نسيت أمر اللعنة تمامًا.

وأخذت أعدو وأعدو حتى وصلت إلى.....؟

لا...؟؟ يا للهول......؟؟؟

طابور طويل....!! طويل للغاية........!!

من فضلك؛ لو سمحت.. دعني أدخل أرجوك، لقد بذلت قصارى جهدي في البحث من خلال مجموعة النساء الصغيرات النافذات الصبر المنتظرات أمام الباب الذي انغمست أصابعي فيه.

- "آبيو...!!"[1]

بصوت عميق حانق، وعلى بعد سنتيمترات قليلة أمام طرف أنفي، وقد حافظت على هدوئي وقبضتي..

---

(١) قتلتك باللغة الروسية.

- "آبيو...!!"

بصوت جهير وبنبرة أشد حدة، دوي كعصف هائل خلال جمهرة النساء الواقفات، تقهقرت للخلف خطوتين وأجهشت بالبكاء.

- "موسكو مدينة لا تؤمن بالدموع"، يبدأ بفاوست والقدرة على التنويم المغناطيسي، تتساوى الفتحة المجاورة للباب الوحيد والتي يمر منها تيار الهواء ومطلية بطلاء أسود وتزينها صورة كلب رابض.

لا يوجد إنسان عملاق!!

هذا بالنسبة لي غير معقول، أيبول الرجال أم لا؟

وهل يكون من المحتمل ألا تشرب الفانتا أبدًا طوال حياتك؟

هذا غير ممكن أبدًا حدوثه، إن.... آه.....

فيما أفكر يا ترى من حين لآخر، الباب مفتوح، وليس لدي ما أود قوله، إذن فلأذهب للداخل.

- هللويا..!! [1] إني قريرة العين وراضية.

الحكمة مثل فرنسي وأمريكي وروسي يصلون إلى غاية اللذة أتكون تلك هي الحقيقة المطلقة، إذن كيف تكون بالفعل الحقيقة المطلقة، هل في الجنس أو المال عند مقارنتهما بالمشاعر الماجنة بعد تناول خمس زجاجات بيرة أو عصير برتقال، أو أي شيء آخر أكون قد اعتدت تناوله ثم تبوله، أنا الآن في موسكو، وأتذوق ملاذ الحياة الروسية، ومن خارج الرواق يسمع صوت ضحكة عالية، هذا يصيبني بالقشعريرة.

لماذا يتضاحك الرجلان وهما يتبولان؟ لا توجد امرأة في أي وقت أو مكان يمكن أن تفعل هذا، ووقفت أنتظر في صمت وهدوء حتى انتهوا من ضحكاتهم، وأنا أكاد أذوب خجلا.

(١) لفظ من الكتاب المقدس بمعنى فليتقدس اسم الرب. [المترجم]

واثقة الخطى مشيت حتى تجاوزت مجموعة السيدات الواقفات.

- ينبغي عليك أن تتقدمي إلى مكان الجلوس.

جلست وأنا أضع ساقا على الأخرى، وأضغط عليهما بكلتا يدي.

- ها...!! هذه المرة أنا الفائزة....!!

وصلت في نفس الوقت مع ديانا عند أمتعتنا، السائل البرتقالي اللون يتراقص طربًا داخل زجاجته، فارت زجاجة الفانتا، وتساقطت منها قطرات ندى عذبة المذاق حتى غطت نظارة ديانا ومنعتها عن الرؤية.

- أمم...!! قد بارك عصير البرتقال شفتاك...!!

لقد صنعت جملة باللغة الروسية، بعد البداية مزقت الزجاجة يدي ديانا، وانسكب العصير على ملابسي، وبالرغم من ذلك فقد تبقى القليل داخل الزجاجة.

جمعت الغنائم وأمسكت بالمقبض الصلب وذهبت إلى الغجري وأوصلتها له، قهقه وقد تدحرجت الزجاجة وسط تلك المجموعة المرحة، أمتعتنا سليمة، ولعنة أبي لم تمسنا بسوء، والآن ينبغي علي أن أشرح لديانا حقيقة الموقف بأكمله، ومن ثم لم يكن ذلك سوى خطأ بسيط وما زلنا نستكمل سفرنا بالطائرة.

السير في المسافة من مدينة مينرالني فودي وحتى محطة النهاية ثم الرجوع إلى أقصى جهة اليمين حيث يتم تغيير المواصلة في مدينة نالتشيك وعبر ليشرليشين تستغرق تسع ساعات، ونحن في هذه القرية الصغيرة لمتسلقي الجبال تحيط بنا غابة صغيرة من أشجار الصنوبر المشمسة، انحنى ظهري تحت الحقيبة الثقيلة، وما زلنا نضحك، هذا هو سرنا الجماعي ولا نزال نتكتمه، سر المرأة، لغزنا الأنثوي.

هذا مع فرس النبي (الجندب) الساخن" بيك آس" الذي يصرصر في الصدر والبطن، خبأنا البيك آس في أعماقنا ، عند هذه اللعبة لا ينبغي وضع كروت اللعب ظاهرة على المائدة، في لمحة البصر تصبحين ولمدة شهر كامل أميرة البازلاء على كل الوادي الجنيات والساحرات والأفيال والحوراوات وباقي المخلوقات.

شعرها الذهبي يفوح منه رائحة الزعتر وبشرتها الحريرية اللينة الغضة حبة لقاح شجرة الصنوبر وعيناها العميقتان بحور غائرة، كل ما فيها يثير الإعجاب، رقيقة ساحرة بل معلمة لفنون السحر أو تستطيع أن تقول مباشرة: فتاة من البلطيق....

إنه من المحتمل أن كون هذه الكلمة المركبة لا يوجد لها استخدام في أماكن أخرى من العالم وهذا مثل إشاعة التصفيق وفيضان العبادة كما في معسكر متسلقي جبال الألب كابردينو وبالكرينو الواقعان في الشمال الشرقي، وأحب شهرًا واحدًا في السنة في تلك الأماكن حيث أستمتع بالطبيعة فيه فقد عدت من تلك البلاد الغريبة خارج الحدود والتي تقع على بحر البلطيق.

فهذا الشعور الطيب والإحساس اللذيذ الذي يبعث على الضحك عند سماع التلفظ بكلمة **lettland** (لاتفيا) تثير مشاعر ممجوجة بالضحك.

آه.. أين يا ترى يقع البحر والكثبان؟ أو أين تقع مدينة ريجا؟

إن الجميع يعرفون أين تقع ويحلمون بها أيضا، فهناك احتمال أن نذهب في الأجازة إلى مدينة يورمالا، فما هو الدور الأساسي؟ فيجب أن يبين ويظهر المعالم الأوروبية لكي يلزم الدقة لفترة طويلة، ويكررها بطريقة متواصلة، فأنا أسكن هناك، فماذا تدعى أوروبا؟

فأحيانًا نضطر لرسم القارة الأوروبية بأكملها، ومؤخرًا تكرر هذا السؤال مرات عديدة:

من أين أنت قادمة؟ ما هو منشأك؟ من أين أصلك؟

من لاتفيا، فقال متمتمًا: يا إلهي، وأخرج القلم ونوتة الملاحظات وبدأ يدون مرة أخرى، فتمنيت أن يكون لدي خريطة مطوية صغيرة (رسم كروكي) ولكني لم أرها، فنحن نقيم في منازلنا ولدينا لغتنا الخاصة، والناس يزحفون نحونا في سياراتهم، فأنا ليس لدي خيار.

يتأنق السكان جميعًا استعدادًا لتلك الرحلة الكبيرة في هذه البلدة الجميلة حيث يرتدون أفضل ما لديهم من ثياب.

لماذا إذن فقط أعرف أين تقع مدينة نيفادا الموحشة أو سانسيبار أو بورتوريكو؟

ويرجع سبب معرفتي بهذه المدن أنها وقعت فيها مآسي عديدة، ومن بين هذه الحوادث، حادث تحطم الطائرة الأخير والذي راح ضحيته مائتان وثلاث وثمانون شخص كانوا على متن الطائرة وكان من بينهم أعضاء فريق المنتخب القومي بأكمله.

وهناك أيضًا المزيد من الحوادث المهمة التي وقعت هناك..

فأين تقع يا ترى هذه البلدة الصغيرة الغير محظوظة؟

وبالرغم من ذلك أيضًا فإن معظم أهلها لا يجدون فرصة عمل، وأكاد أجزم بأن معظم سكان الأرض لم يهتموا أبدًا بمعرفة أي شيء عن قطعة أرض تسمى بجمهورية لاتفيا.

حسنًا إذن.. أنا لست عنصرية إلى تلك الدرجة، ولن أُرهِب الفلاحين الأحباش أو الصينيين بأن ألوح بقبضتي في الطريق إذا ما رأيت أحدهم هنا أو هناك، ولكن عندما أذهب إلى ستوكهولم والتي تبعد فقط مائتي

كيلو متر عن مدينة ريجا فإنه ينبغي عليَّ هناك أن أوضح وأشرح أصل موطني لكل شخص وأغلب الناس هناك (عدا القليلين) متعلمين ويحملون شهادات عليا في حقائبهم.

أود أن تبين لي السماء من أين وكيف حصلوا على شهاداتهم...

إن لاتفيا لا تقع على الجانب الآخر من كوكب الأرض، ولذلك فقد ارتفعت عندي المرارة، وأشعر تدريجيًّا بتلاشي أحلامي في توحيد الإنسانية.

وتلك كانت واحدة من حكاياتي التي لا نهاية لها، إن الأجواء الوطنية ينبغي أن تبدأ مع تلقين الأبجدية، فيصبح الشباب والفتيات خارج الريكيافيك يسمعون عن وطنهم:

(آه.. مثل القشدة الأيسلندية، في غاية الجمال والروعة....)

غير أن هنا في جبال القوقاز الكبرى؛ ينبغي علي أن أظل لطيفة طوال الوقت، إن إظهار التعاطف أو إبداء الاستعداد لمساعدة الآخرين إما أن يكون هنا أمرًا في غاية الجمال والروعة، أو الغموض، أو العبث.

وبالنسبة لي تكون الأولوية لإظهار العواطف الحسنة الخيرة، وأستطيع الانتفاع من ذلك بتقويم الآخرين دائما، وهذا ما أطالبهم أيضًا بفعله.

أنا لطيفة، وأبدي تعاطفي ورغبتي في مساعدة الآخرين وأصبح بذلك جميلة وغامضة وعابثة...

من أجل ذلك فأنا أظل متسامحة هنا إلى أبعد الحدود، ولذلك فإني أستمتع وسأظل أستمتع المرة تلو الأخرى لأني أعلم أنه يعود إلى البيت في ظرف شهر، وهناك يكون بخير، حيث يجتمع بأصدقائه القدامى، ويرى الشوارع النظيفة، ويستمتع بالفراش الوثير، ويجد أيضا بانتظاره الأمهات

الحنونات، والآباء الذين يغضبهم لعب أبنائهم فيقطبون حواجبهم، والكلب الذي في ساحة منزل الجارة الذي يسبب القليل من المعاناة.

أين يمكن للمرء أن يجد الخبز الساخن؟ هناك.. حيث يمكن له أيضًا الاستمتاع بالاستحمام في نهر جاويا ذي الرائحة العطرة وأشجار الصفصاف الفضية التي تحيط به، ويمكنك هناك أيضا أن تتذوق عسل النحل الطازج مباشرة من الخلايا، كما يوجد أيضا في فصل الصيف صلصة عش الغراب الأصفر (صلصة المشروم الأصفر)، وفي الشتاء الفطر الحجري المتبل (المشروم المخلل).

وها هي صوفيا معي، عندما نضع سويًّا أحمر الشفاه بشكل متعرج على شفة واحدة فقط، وبالرغم من ذلك فلا أحد يستطيع أن يكلمنا، وهذا ما أعترف به للكاهن أو للقسيس:

(أعترف باقترافي لجميع ذنوبي، وأعلن أني لن أكررها مرة أخرى، وسوف أطيع والديَّ في كل الأمور بعد ذلك..!!)

ويوجد هناك أيضا الثلوج، وهي ألذ وأنعم ألف مرة من ثلوج جبال القوقاز، ويوجد هناك....!!

نعم يوجد هناك الكثير والكثير من الفانتا والمسك، ولكن هناك أنا مجرد فتاة عادية تتجول في شوارع مدينة تاكيا حيث تسكن مع أسرتها بأحد المنازل الصغيرة هناك، وفي المساء قبيل النوم؛ أمتص سبابتي اليسرى.

مجنونة تتسكع خارج المدرسة، لا يوجد شاب واحد يدعوني للرقص، أحمق... ذلك الذي يذوق القبلة الأولى ولا يتجاسر على تكرارها!!

وأبدأ في البكاء هناك في وسط صالة الجمباز، لخوفي من القفز بالزانة، ويظل هذا يخيفني ويثير رعبي وقلقي.

لدي صديقة، سانتا، حيث نذهب سويا إلى منطقة الروب، وهي تجلس بجواري في المدرسة منذ ثلاث سنوات، وقد كان لزاما على أن أجلس بمفردي قبل مجيئها، حيث أنه من الخطر الجلوس بجوار مجنونة مثلي كما يدعون.

كان زملائي في المدرسة ينفرون من الجلوس بجواري ويقولون لي: "رائحتك كريهة"، لم أفهم حقيقة الأمر لماذا يقولون لي هذا دائما، بالرغم من أن رائحتي غير كريهة بالفعل، ولم أدرك حقيقة قصدهم، فأنا أستحم مرتين يوميًّا، وأغسل سترتي المدرسية ورابطة عنقي كل مساء، وتساعدني أمي في رتق الثقوب من عند المرفق حيث أنني ما زلت غير مستعدة لعمل دقيق كهذا.

لقد نفد صبري..!

وأستطيع أن أشغل بخيوط التريكو المعاصم والشال فقط، حيث وسعت أكمام بلوفري الضيقة.

وفي الحصة الثامنة جاءت سانتا إليَّ وسألتني هل أسمح لها بالجلوس بجواري، فاندهشت للغاية، وبعد أن جلست انحنت علي وتشممتني وقالت: "غريبة، إن رائحتك ليست كريهة كما يزعمون"

ومنذ ما يزيد عن ثلاثة أعوام وحتى الآن تجمعني بسانتا صداقة قوية، وبسبب جرأتها؛ أصبحت سانتا من أعز أصدقائي، حيث نذهب سويا إلى السينما، والمراجيح في حديقة ميتا؛ حيث يوجد بها مراجيح كبيرة على شكل مراكب يجلس المرء بداخلها فتهتز به حتى تكاد تنقلب، وأغرمنا سويا بكرة السلة...

وكان أكثر المفضلين لدينا فريق مصنع الإلكترونيات، ولقد أطلقنا على لاعبه الأول اسم فتريك، لسمعته الجيدة ولأنه كان ذا شعر

أشقر فاتح، وتبعنا في هذا فترا، ذلك الذي أطلقنا عليه اسم فاتريك؛ لأن لهذا الاسم وقع رنانًا في الآذان، ولأنه كان ذا شعر أشقر فاتح، وعندما علمنا بإصابته في ركبته ونقله للمستشفى، ذهبنا فورا لزيارته وقضينا معظم الوقت في الضحك معه، بعد ذلك أهديناه الهدايا التي شغلناها له بأنفسنا، فقد قمت أنا بتطريز شعار أوسكليس، وقامت سانتا بشغل جورب برباط يحمل ألوان علم لاتفيا، أحمر وأبيض وأحمر، حقًا سانتا فتاة في غاية الشجاعة، وبسبب ذلك فقد حاولت ذات مرة أن أقوم بشغل جورب مثل الذي فعلته، لدي فقط وشاح يحمل ألوان الأحمر والأبيض والأحمر، وأحتفظ به في درج مكتبي تحت القاموس الروسي اللاتيفي..!!

من قبل كانت متحمسة جدًّا لفريق إيجور ميجلينيك ولكنها استبدلت به فريق أسيك موسكو، وبعد ذلك أحببنا نادي بي سي تسالجريس، لدرجة أنّا سافرنا خلفه ذات مرة إلى مدينة كاوناس؛ على أمل لفت نظر اثنين من لاعبي الفريق، أغرمت سانتا بأرفيداس زابوناس؛ ولكني وجدته شيئًا ضخمًا، جينتاراس كرابيكاس يعجبني أكثر، صحيح أنه ليس صغيراً في السن، ولكنه مع ذلك ذو شهرة واسعة.

"كرا.. بي.. كاس"

يذكرني قليلاً بأصوات القرقف عند شيها في السمن في فصل الشتاء..

"كرا.. بي.. كاس"

تشعرك بسماع نقر خفيف على زجاج النافذة...!!

ناديت على سانتا؛ ورجوتها أن تحضر، بعد أن ذهبنا إلى ذلك المكان، وكثيرًا ما زارتني سانتا في أثناء مرضي، بالرغم من إصابتي بالالتهاب الرئوي الحاد وذلك سبب كافٍ وهام ومقنع لعدم زيارتها لي، حيث تذهب عبر مدينة ريجا كلها، وتلهج أنفاسها ويحمر وجهها من ثقل أحمالها من الكسبرة والبرقوق.

- "محبتك وخجلك ضاعا في أثناء تسلقك عبر الجبال".

هكذا قالت لي سانتا واحتضنتني بقوة،

- حقًّا.. في هذا العام، طريق طويل موحش، واغتممت بشدة لأنك ستجتازينه بمفردك.

بعد ذلك نزعت غطاء السفرة البني العريض وغطتني به على السرير.

- هذه هدية لكِ، مع أمنياتي بالشفاء العاجل، أصبحت حزينة بدونك في الفصل، انظري إليها سريعا وإلا ندمتي على ذلك.

فتحت المظروف، وابتلعت ريقي بصعوبة؛ وجدت نواة برقوقة وصورة كبيرة لفتريك عليها توقيعه.

- أنت مجنونة...!!

همست لها، فأنا أعرف جيدًا ماذا تعني هذه الهدية بالنسبة لها، ففي بداية العام الماضي قضت سانتا ما يقرب من نصف يوم داخل مكاتب تحرير إحدى المجلات الرياضية، وظلت ترجو موظفيها حتى حصلت أخيرًا على صورة فيترا من أرشيف المجلة، وبعد ذلك علقتها سانتا بجوار سريرها، وفي كل ليلة قبل أن تنام؛ تنظر إلى الصورة وتتمنى لصاحبها أحلامًا سعيدة، والآن يصبح من الصعب نوعا ما أن أسألها عن سبب مجيئها، ولا أعرف إذا ما كان من الأدب قبول هدية من شخص ما قريب مني بدون أي سبب لذلك.



قبل انتهاء العام الدراسي التاسع [1] بقليل، دعيت لأول مرة للذهاب إلى حفل عيد ميلاد لأحد زملائنا في الفصل، وكنت قلقة ومتوترة للغاية؛ حيث أني لم أحضر أي عيد ميلاد قبل ذلك، حيث نكون فيه سويًا شباب وفتيات أيضا، لقد سمعت كثيرًا أنهم هناك في تلك الحفلات الصاخبة يتراقصون ويتعانقون سويًا، ولذلك لم أستطع النوم لليلة كاملة قبل الحفل، واخترت هديتي لصديقي توم بعناية فائقة، لدي مجموعة رائعة من الفراشات المجففة، فاخترت عشرة من أجملهم ووضعتهم في علبة من خشب الصنوبر ذات غطاء زجاجي متحرك.

وهذا الصندوق قد صنعه لي جدي، وأبي هو الذي أحضره لي؛ كي تجفف فيه الحشرات، وتوجد أيضا في تلك المجموعة بعض الجعارين، ولكنها لا تصلح لأن تكون هدايا قيمة، إنها لا تكون جميلة إلا إذا كانت كبيرة الحجم، ولكن مع حجمها الضخم هذا توجد أيضًا مشكلة كبيرة في التجفيف؛ حيث تظل رطبة دائمًا، ولذا فإنها سرعان ما تنتُن وتصبح رائحتها كريهة، لذلك فقد انتقيت له أفضل الفراشات، ذات الأجنحة الملونة بالأسود الحالك؛ ومنقطة عند نهايتها بالأحمر والروز الفاتح، ولقد مكثت يومين كاملين في صنع هذا، وقد تم تجفيفها بشكل جيد حتى لا تتعفن، وقمت بتثبيت الأرجل وهي واقفة ورفعت الأجنحة بزاوية مائلة حتى يمكن للمرء مشاهدتها بسهولة من أعلى ومن أسفل، والناظر لها يستطيع رؤية الأجنحة بالتساوي.

وقد وجدت أمي تحتفظ في دولابها بفستان - كان أبي قد أهداها إياه – رغم وجود فتق في معصمه الفضي، وقد ارتديته بعد أن وضعت قطعة حرير على المعاصم وأصبح صالحًا لأحضر به حفلة عيد الميلاد، وقد كان منظره في غاية الجمال والروعة، وألقت صوفيا نظرة

(١) الصف الثالث الإعدادي. [المترجم]

على هديتي ثم نظرت لي وسألتني إن كنت قد تواعدت مع توم من قبل؛ فقالت لها: إنها سخيفة ولا تزال طفلة صغيرة حتى أنها لم تفكر في إحضار هدية معها، ولكن بمثل تلك النظرة فهمت صوفيا عن طريق الخطأ الكثير من الأشياء.

في صباح اليوم التالي رأيت الفصل كله يضحك مني، وتوم لم يتبادل معي كلمة واحدة حتى هذه اللحظة، وأنا أصبحت أكثر حدة تجاه أي أحد منهم، وقد كان عيد ميلاد محترمًا وسخيفًا أيضا؛ حيث لم يكن فيه أي شيء من القبلات والأحضان التي كثيرا ما سمعت عنها.

وبالرغم من ذلك فعندما يفكر المرء بحق يجد أنني لست الوحيدة غريبة الأطوار، فجارتي إرينا تخرج كل أحد لتدور حول حديقة منزلها؛ حيث تجمع القواقع في جردل صفيح؛ ثم تقوم بسكب الماء المغلي عليها أو تطحنها بأقدامها، كل صباح أحد، ومنظرها يبدو في غاية العقل...



وقد جاء في هذا العام إلى معسكر متسلقي الجبال مئات المتسلقين المتعصبين، من كل أنحاء الاتحاد السوفييتي: روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء وغرب أوروبا وليتاور ولاتفيا وجورجيا أيضا، ومن خارج البلاد الجبلية الأخرى عدد غير قليل من الزائرين قد ضلوا طريقهم إلى هنا، وبالرغم من أنها بها بالكاد بعض الجبال إلا أنك لا تجد السعادة والمرح والأموال إلا فيها.

أعرف أنه لكل كرسي إذن بالسفر خارج لاتفيا لشخص واحد فقط وليس لأكثر من ذلك، وإذن السفر يعطى متمركزا من موسكو، وهو بالنسبة لي يشبه – في المعنى وليس حقيقة – نوعًا ما من الخطافات، ولهذا السبب فإن المرء منا لا يتم التقاطه بواسطتها، هل ترى أنت مثل ذلك أيضًا؟ إننا هنا ندبر للقيام بثورة، وماذا عن المجون والعبث؟

يحتمل أن تكون الأميرات على مملكة البازلاء ذوات نزوات قليلة بين الحين والآخر، ولكنهن يظللن بلا أخطاء كتلك التي يصنعها الحكام الذين هُم على رأس العالم.

توزع جميع المتسابقين على المقاعد المخصصة لهم والتي تتناسب مع خبرتهم ونضجهم الرياضي على شكل مجموعات وفصائل، ويحكم معسكر تسلق جبال الألب نظام الأقدمية؛ هذا الذي يتم تجاوزه في الخارج واعتباره مقيتًا، يكون كل شخص من المستجدين برفقة آخر أقدم منه، ويصطحبه معه في كل مرحلة من مراحل التسلق الصعبة؛ وفي نهاية الشهر يتم توزيع المنح والنياشين على الشباب المتسلقين في اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية، وعن طريق تلك الأوسمة يصبح المستجدين أكثر طاعة وأقل تفككًا ، بعد عام أو اثنين يمنح المرء درجة رياضية أعلى أو يستحقها عندما يستطيع تسلق أعلى قمم جبال الألب في خلال شهر واحد فقط؛ وهذا أمر من النادر جدًّا حدوثه؛ولم يحدث قبل ذلك.

إن الأشخاص ذوي الخبرة يكونون في غاية الحذر عند تسلقهم للجبال، ويمنع التسلق عندما تكون الظروف الجوية غير مناسبة، تساقط قطع الثلج الصغيرة والمطر يجعل المرء يمكث في منزله، ويجب عند خروجه أن يغطي رقبته وآذانه، ومن المتوقع حدوث كارثة في تلك الظروف كانهيار جليدي يؤدي إلى الموت.

وفي معسكر جبال الألب في الاتحاد السوفييتي يتعرض للموت فقط من يصعد إلى أعلى قمم الجبال؛ أو الذي يذهب إلى أعلى أبراج الثلوج، وهو حينئذ لا يكون إلا معتوه أو أبله، ذلك الذي يغامر بحياته بصعود هذه الرحلة على قبضات يده من أجل المتعة، ولكن مع هذا العمل الغير منضبط أيضًا هناك آخرون من السكان والموظفين في هذا المكان يتعرضون للخطر، صعوبة المسئولية فيأن مصيبة الموت تقع على عاتق مرشدي المجموعات والمسئولين في نقطة الإسعاف فهم يخاطرون بحياتهم

لإنقاذ حياة الآخرين، وتحتهم نجد دائمًا الذي ينبغي أن يتحمل المسئولية عندما يتدحرج شخص ما منزلقا نحو صدع بعمق واحد كيلو متر، وفي هذا العام حصلت على درجة رياضية عالية ولكني ما زلت أخاف من التسلق.

والحوادث الخطيرة التي تقع للشبان الصغار يتهم فيها شينيا مرشدو الجماعات الغير حذرين.

مكثنا أنا وديانا في داخل حجرتنا في الليلة الأولى وانتظرنا تناول الشاي الساخن بالزعتر، وشينيا ينادى علينا فتبادلنا النظر أنا وديانا؛ وجاء فألقى علينا نظرة خاطفة ثم تنهد بارتياح:

- يا إلهي.. يا إلهي..

ودعانا للحضور مع باقي أعضاء المجموعة وهو ليس اسمه شينيا كما نناديه ولكنه يدعى هناك بـ"يفجينجا ميخائيلوفيتش" ثم انتهى هنا إلى شينيا، وحجرته تكاد تشبه عرين النمور القطبية، حبل متأرجح، المعاول الثلجية بمختلف أنواعها، حذاء تسلق، بندقية قصيرة، صور لبعض قمم الجبال معلقة على الحائط، وأكاد أن أجزم بأنه يوجد على الوجه الخلفي لتلك الصور صورة زوجته وطفليه يمسكان بها، تملكتني رعشة مضطربة أسفل ظهري، وعضضت على شفتي السفلى ولكني سرعان ما هدأت؛ حيث أن التجاسر على الاقتحام غير حسن، في رائحة بخار الشاي الساخن المدهشة والاطمئنان إلى شم الطيب بعد نزع حذاء التسلق ذي الرقبة من القدم المعرقة في الجبل.

بصدق أنا كنت غير متأكدة تمامًا من وجود الصورة العائلية على خلفية قمم الجبال في مغارة النمر القطبي، ومع ذلك نحتاج إلى تأكيد عملي، مرة ثانية حذاء التسلق وحبال، وبالضبط فقد رأيت شينيا يتنكر مثل قطة سارقة، وقد أصبح في النهاية غريب الشكل، وعند اقتحام غرفته تصطدم ببقايا هيكل ماعز جبلي أو بقايا هيكل أحد المتسلقين الحمقى.

كان الشاي في تناول يد الجميع، وشينيا لم يعط أي أعذار أخرى مقنعة، وبالنسبة لنا فقد توقفنا عن ذلك، وسكنا فوق لاجر فوير (نيران المعسكر)، حيث أن الجميع موجودون هناك، حيث يجلسون كل شاب مع قيثارته، وفي هذه المرة على غير العادة كانوا ثلاثة؛ حيث كان معنا سيرجي، سيرجي طويل وملحن مشهور من لينينجراد، ذو وجنات خفيفة ساقطة، ويزدان بثنايا ضاحكة جافة، وعينين سوداوين ثاقبتين، وشعر لامع وبني محروق ذي تجعدات كثيرة، وعندما وضع أنامله على أوتار قيثارته كرهنا أن يرفعها، كان يكاد يمزقها من قوة لعبه عليها، وكان أغلب سامعيه أشخاصًا ظرفاء، يشحذون أسماعهم مثل النمور الرقطاء، ويرغب كل واحد منهم أن يظل ملتصقًا بالنغمات طوال الليل، استمر سيرجي في الغناء والضحك طوال الوقت، وبالرغم من ذلك أيضا فقد كتب نوتة أغنيته؛ ويحتمل أن يكون قد أجرى عليها بعض التعديلات البسيطة، حيث أن المرء لا يستطيع التغني بها، ولكن سيرجي مع ذلك يرتجل أشياء في غاية الروعة، نص حقيقي؛ قوي يسحر القلب ويملأ العين ببريق عجيب، وعندما عزف سيرجي عكست المرآة صورته، كان كل مستمع يردد خلفه وكذلك كل شخص علي القمم الثلجية.

أنصت سيرجي جيدًا لقصتي؛ وطلب مني التحدث باللاتيفية:

- إذن أنت بالفعل لا تفهمني؟

قلتها بضحك ولكنه ظل متمسكًا برأيه، قال لي أنه يحب نبرة لغتي وطلب مني أن أنشد قصيدة، قلت: إني قرأت لشكسبير وبوشكين وأوسترا ثوينا وراينينز ولكني لا أستطيع تذكر شيء الآن غير الكلام البذيء.

وكلما شرعت في قول بعض الأبيات المشهورة؛ أستبدلها في نفس الوقت بأخرى، حتى أني في النهاية نشدت أبيات أغنيته اللاتيفية:

- أكتبي لي في هذه النوتة!

هكذا رجاني؛ فقمت بالشخبطة حتى امتلأت الكراسة المربعات، ثم وقعت على ذلك، أرسم أسفل كل أغنية صورة جبل إلبروس صغير تخترقه شهب ساقطة في منتصفه.

- لقد غنيت باستمتاع شديد...!!

ذكر لي هذا، ولكني كثيرًا ما أنفر من النغمات الشاذة.

- عند لهجة مثل لهجتك؛ يجدر بالمرء الغناء بشكل جيد، إنها نقية وجميلة مثل الموسيقى...

- أنت بالفعل شاعرة مخضرمة.

قالها لي فامتقع وجهي من الخجل حتى كاد يحاكي وجوه الموتى، ثم حك وتنحنح بعد ذلك، ولأول مرة أرى مدى رقة جلده، واستطالة ونحول أصابعه، وانفراج المسافة بينهم، وحركة عينيه الغير مستقرة.

عندما كان سيرجي فتاة؛ كان يسمى بحلم الشعراء ولكنه بالنسبة لي من أفضل أصدقائي حيث أننا نستطيع الجلوس سويًا بدون أي تعليقات.

لقد كان مزدوج الجنس (خنثى)، وهو أكبر مني في السن، والبعض يحكي عنه أشياء عجيبة، أما بالنسبة لي فلم أجد أي أثر للقبل، ولا أي تلميح لأي اتجاه غرامي من أي نوع، ووجدته بعد ذلك على غير المتوقع كان يبكي كطفل صغير، وبدون أي أسباب تستحق الشرح، فقط كان يبكي بخفوت.

- يا إلهي.. كاتيوشا، عندما بكيت كم كنت جميلا حقا.

وألصقت رأسه بصدري وأخذت أربت عليه وأهدهده، لم أكن أعرف كيف ينبغي أن أعزيه ولكنه تفهم هذا، شعرت بأنه في حاجة لشخص ما يربت على رأسه ولا يكلمه.

في الجبال لا يوجد أشخاص بسطاء أو سذج، ولذلك فقد احتضنته بين أكتافي ونحن في وسط الأجانب الذين قلما يلتقي المرء بهم، وائتمنني على حياته كلها.

كيلو متر واحد فقط من طريق الممر الجبلي الوعر تساوي عشرين كيلو مترًا من الطرق الترابية الممهدة في لاتفيا، أحداث يوم واحد هنا تكافئ ما يحصل في المنزل على مدار عشرة أعوام كاملة.

فالد رابوكي من مدينة كيميروفو السيبيرية، ضحك ضحكة طويلة متواصلة وظل يعبث بشكل صبياني، قبل كل أغنية يحكي نكتة وإلا فإنه لا يبدأ، إن لاعبي الآلات الفقراء في الجوانب يكادون يتمزقون من شدة البرد، وبمجرد أن بدأ يغني أخذ الجميع يرددون في هتاف عالي بعض المقاطع المشهورة من أغانيه:

- أغنية "حتى" يا كابو...

وعندما اشتد التصفيق مد فالد بصره مثل الديكة واسترسل في صلاة خاشعة طويلة، وطبيعي أن يتبعه الجميع في ذلك، وتراكمت أمامه عناقيد العنب وجرار العسل، وكانت هناك فتاة على وشك أن تقص له خصلة من شعرها.

فالد شخص مجنون، وأحيانا يتصرف بمنتهى الحماقة؛ كأن يقف على رأسه ويقفز فجأة ويدور في الهواء على حين غفلة، وهو مستعد دائما وبدون تفكير لإطلاق الرصاص إلى أعلى بمنتهى الخطورة، فعل ذلك عندما طلبته منه فتاة من البلطيق؛ حيث احمرت وجنتاها خجلا بعد أن فعل

ذلك، إن طلبها منه إطلاق النار لا يعدو أن يكون مجرد دعابة، وينظر إليه سيرجي نظرة مظلمة، وتتلهف على الصمت أمامه ولكن زريوشا لم يجر إلى أي مكان آخر، ضحك لاجر فوير ، وألقى نظرة حزينة على قمم أشجار الصنوبر المقوسة والغير ظاهرة للأعين؛ ثم بعد ذلك ودعنا في نداء مظلم عميق، فالد ممرض ويعمل هنا في نقطة الإسعاف، ولديه أشخاص كثيرين في حياته، وهو لم يأخذ منا أي معلومة حتى الآن، كما يبدو.

جينا[1]، من مدينة كييف، له قصة مثيرة، ألفها فلاديمير فيزوتسكي، وقد كتبها في لحظات قصيرة ثم ذاع صيتها بعد ذلك، وإنها بالرغم من ذلك تحتوي على سخرية عظيمة وتهكم شديد من اللغة، جينا شخص نادر الوفاء والإخلاص، ولكن أغلب الناس لا يرون ذلك (وأن الذين هم متأكدون وذهبوا إليه لا يزيدون عن الثلاثين)، وقد عادت بعد ذلك تنجذب إلى العازف في غرفته الصغيرة.

ومع بداية تأخر الليل عند خفوت آخر شفق في السماء والظلام الذي بدأ يتساقط فيه ندى الفجر، أضافوا بأن طيور الليل تحت الاعتذار الخجول. وزريوشا كانت قد غفت عيناها ؛ وهي دائما ما تكون سريعة الملل وغالبًا ما تغادر جلستنا مبكرًا قبل باقي الآخرين.

في تحدٍّ وعناد رأينا أنا وديانا الضمان مما يفعله فلاد في الكوخ المجاور مع فتاة من تلك الناحية. تضاحكنا سويًّا ونحن محافظتان على كبريائنا، والليل بالنسبة لجينا يظل مستمرًّا لا ينتهي، يبدي جينا إعجابه بفتاة من البلطيق وفي وجهة نظره أننا نحيط علمًا بأمور وأشياء كثيرة وهو لا يسمح لنا بفعلها كما يفعل معظم الآباء.

- في الواقع أن كلمة نعم ليست بكلمة سيئة.

(١) تدليل الاسم الذكري الروسي: جينادي

ينبغي على الآباء أن يكونوا طيبين؛ والنساء وخاصةً الأمهات يعرفن جيداً ما يردن. وعندهن سوف تجد السبب تحت الأقدام، الذي يقف خلفك رجل ذو معرفة يعلم بأي السبل يترك المرء الميدان، عندما يمشي بشكل معوج في الحياة. ولكنك وديانا تختلفان عن الآخرين إنكما مثل الأزهار العطرة ناعمة ورقيقة ومرهفة ولكنها ذات جذور عميقة.

وقد حاول كثيرًا شرح الفارق بين الكلمتين: فتاة وآنسة – ولكن ما لا يعرفه هو أنني غير ذكية بما يكفي – خصوصًا بعدما فهمني أني أقع في الوسط بين الفتاة والمرأة الصغيرة، ثم زفر قائلا:

- سوف أشرح لكي ذلك للمرة الأخيرة...!

- وهو كذلك

- لأني لست بأبيك أو رفيقك حتى أكون مضطراً إلى هذا، أنت لم تعودي فتاة صغيرة الآن؛ ولكنك في الوقت نفسه لست بامرأة ناضجة واضح...

هززت رأسي بالموافقة.

- عندما يكون المرء غير ملمًّا بمعظم الأمور يكون أفضل في بعض الأحيان، ألا تتفق معي في هذا.

وهذه هي بداية الأسبوع الأول في القوقاز، وليس لدي أي إحساس أفضل من ذلك الشهر الذي تغيرت فيه حياتي المستقبلية بأكملها، وفي صباح اليوم التالي وجدت على فراشي بعض اللآلئ الحمراء الذابلة موضوعة برفق شديد، وبدون أي سبب ظننت أن فلاد هو الذي قطفها لي، وفي النهاية اتضح ذلك، إن هذه الحمقاء وحيدة وبمفردها وقد جاءت من هناك لقدرتها على تسلق الجبال؛ حيث تنبت اللآلئ الحمراء، بعد ذلك اكتشف مرشدنا الزهور وهو يكاد يجن من شدة الغضب وقام بجمع المعسكر بأكمله ليسألهم: أين ذلك المذنب الرومانتيكي؟

من هناك حيث تنبت اللآلئ لا يسمح لأحد سواك.

- في هذا الكثير من الخطر.

هكذا صاح جينا بوجه أحمر كالجمان أمام جموع الناس، وقد وصل هديله متأخرًا وخافتًا نحو أذني، هذه هي زهور الحب التي يمكن للمرء أن يقطف منها اثنتين فقط، في بداية الأمر لم يبلغ أحد ثم فجأة بعد ذلك تقدم أمام الصفوف بعض رجال المعسكر، لعنهم المرشد شينيا بصوت منخفض ثم تركهم ليذهبوا جميعًا.

وبعد ذلك ظللت غير مدركة أن فلاد لم يقطف اللآلئ الحمراء، وبالرغم من ذلك فإنه لا يضمن ضياع فرصة عظيمة جدًّا وقد انتفخ أمام مجموعة دجاجاته.

لم أعرف بعد إذا ما كان هذا الشهر سوف يصبح كلمات غير مقروءة في ذاكرتي، التي حتى بعد عشر أو خمسة عشر عامًا مؤلمة لم تغادرها الارتعاشة، ما زلت لا أعلم ماذا يعني الشعور بالذنب الذي يسيطر على جميع الوعي ويستمر ليالي كثيرة ولا يترك آثارًا كالأطلال السوداء، نعم بالفعل منذ بواكير الطفولة أصبحت متقدمة، إن الجميع يأتون بالفعل كما ينبغي وبالرغم من ذلك يظهر البعض فقط الأمور التافهة، وبجهد ضعيف، وقلة حكمة وخبرة، والحياة يعيشها البعض بطرق أخرى ملتوية، وبعد ذلك يتبقى واحد فقط، لم يزل بمفرده، تعاوده نفس الذكرى بشكل متصل فتجعله يعض أنامله عليها قائلاً:

- نعم.. نعم.. كان لدي إحساس بهذا وقتئذ، إنني أقل من الآخرين، أقل بكثير، نفسي تفقد القدرة على الإرادة، ولكن هل تفهم أن لدي في مقابل ذلك تصرفًا مضادًّا مثلما أنك تخالفني، (كما أنك أنا أكون أنا أنت).

لا يحتاج المرء إلى امرأة تحك أسفل أنفها باستمرار طوال الوقت، ولا احتياج للتذكير بأمور جديرة بالتصديق أو الاستياء مرة أخرى، عندما تضيق الحياة بي أتمنى ساعتها أن أصير رجلاً.

ما زلت لا أدري كيف أن بداية التجاهل تقع على عاتقي، وعندما يأتي الربيع المقبل لن أتسلم المزيد من خطابات جينيا، بعد أن كان يراسلني كل أسبوع تقريبًا طوال الشتاء ويهديني مجموعات من تلك الصور المرحة التي التقطناها سويًّا أثناء تجمعنا الصيفي:

"جينيا وكاترينا فوق الصخور الناتئة"

"جينيا بصحبة خمسة آلاف"

"جينيا والمعول الثلجي"

"جينيا والعنزة الجبلية"

وقبل الربيع ضل الزوجان طريقهما في ظروف خاصة؛ثم اجتمعا بعد ذلك:

"جينيا وجالينا"

"جينيا وجالينا والطفل – هناك تحت ملابس جالينا وهي تبدو حاملاً فيه ".

جينيا كتب لي بأنهما تزوجا في مايو ورزقا بطفل في يوليو، إنهم عقب موسم التسلق القادم سوف يعودا إلى ريجا حيث يمران بموطنهما الأصلي هناك، إن.. إن.. إن.. وبعد ذلك.

في يوم من منتصف أبريل دعاني إلى زيارته، قبلت دعوته بسرور، وفجأة لم يصلني منه إلا خطاب وحيد، ولقد داومت على مراسلته؛ وتراكمت في ذهني العديد من التساؤلات المزعجة:

كيف حالهم هناك؟

تُرى ماذا تصنع صاحبته؟

وهل يحتمل عودتهم سويا فيما بعد؟

(ينبغي عليكما بعد ذلك استخدام مطلق الحرية عند نزول البحر)

أنا أغبى الأغبياء... بلهاء عنيدة أصيح دائمًا معلنة ذلك على الملأ، عندما يلغي أبي سفره إلى مدينة "كيبف" فإنه يصيح بصوت عالٍ وطريقة مفزعة جدًّا، وبعد ذلك أتلقى كل خطاباتي التي قد سبق أن أرسلها ولا تزال كما هي مغلقة لم تمس أو تفتح، وهناك أحصل على نصيحة مختصرة من والدة جينيا، وقد كتبت بحبر أسود وخط مرتعش حتى أنني لبثت مدة طويلة غير قادرة على قراءتها وظللت متجمدة أمامها، وفي أثناء ذلك حاولت فك رموزها وحل طلاسمها الغير واضحة المعالم وبعد ذلك صحت بشدة ثم علا صياحي: إن أبي لا يعاملني كفتاة راشدة عندها ستة عشر عامًا ولكنه يعاملني كطفلة رضيعة لا تزال تُحمَل على الأيدي، صحت بصوت عالٍ لأني أصبحت غير قادرة على البكاء، ولقد صحت لأني أكره المشروم – فطر عيش الغراب– إنني أكره العالم كله، ولقد سافرت إلى تشيرنوبيل حيث تم إحراق جميع مؤخرات الخنازير، إلى أين ترغبون في الرحيل يا أحبابي، وإلى أين بعد ذلك لم يعد يبقى أحد هناك، فيمكنني الصياح ثم تهدئة نفسي بعد ذلك، "حبيبتي لقد غليت لكي الحليب" هكذا يهمس أبي في أذني؛ ولقد تناولت رشفات كبيرة من اللبن ثم لعقت القشدة من عليه.

"لم يعد لدى جينيا المزيد، فلقد رحل مع زوجته إلى فالد حيث اختار عصا المهد لعبور أناستازيا"

(والدة جينيا)

هنـاك خلـف الجبـال كتبـوا لـي العديـد مـن الخطابـات، راسـلني بعضهم على مدار العام فقط والبعض الآخر استمر طوال العمـر كله، حل تحركت العصا المعلقة في الهواء أنا لا أشاهد غير الأفلام القديمة ولا أزور سوى تلك المتاحف الأثرية، ولكن في مساء ذلك اليوم أحضر جينيا لنا قاص رائع، وهو أيضا من أفضل الأطباء المسعفين في أوكرانيا: "فلاديمير فيزوتسكي"، وهو قوي وذو عضلات مفتولة ووجنتين متوردتين وعيون خضراء مثل القطط وأسنان متساوية بشكل غير عادي، لا يوجد في المعسكر كله أفضل منه على الإطلاق في تجبير الأطراف.

وتنتظر الفتيات أوقاتًا طويلة حتى يحصلن على متعة المساج على الطريقة الأوكرانية، وجينيا كان هو المسج الخاص بي والذي يبتكر أساليب جديدة وطرق حديثة في فعل هذا.

هل تعلم.. بدون تعلم اللغة لا يمكنك التحدث.

- لم أعد أبالي بما تفعلين..!!

ثم وضحت لي ديانا قائلة:

- عندما تشعرين بإيقاع شديد يجتاح نبضات قلبك، ضعي أذنك على صدري؛ هل تسمعين؟ في البداية تحتاجين إلى أذنيك حتى يمكنك السماع ولكن بعد ذلك يمكنك الإنصات بأناملك ثم بعد فترة لن تحتاجي لشيء من كل هذا، ثم إن سرعة النبضات نفسها تتغير؛ أحيانًا تكون في كل الدورة الدموية مثل مهر صغير جامح... فلتأخذي لجامه برفق.. برفق شديد... ثم لتداعبي شعر رقبته قليلاً بهدوء.. بهدوء جدًّا... وبعد ذلك يمكنك تركه يفلت ببطء، ينبغي عليك أن تهدئي؛ تهدئي تماماً، هكذا جيد.. جيد جدًّا... ثم انظري ها هو نفس الإحساس ينتقل إليك أيضاً، رائع يا كاترينا ممتازة ومتميزة حقًّا.

نفخت ديانا أطراف أصابعها وقد أصابتها قشعريرة أسفل ظهرها، تحسست جميع جسدها ببطء، لبثت برهة تتطلع إلى طابع الحسن بجانب الصليب ثم تواصل الانزلاق بيدها، تسللت يد ديانا حتى أسفل بطنها حذرة من أن يلتفت إليها جينيا، سيقان لبلاب طويلة ومرنة ومزدهرة تلتف حول نفسها، تنخفض الأنامل التي كانت مرتفعة دائمًا لتدور عبر تلك المنطقة.

"توك، توك، توك، توك..".

أسبلت الجفون ورحلت بعيداً، أخذت أداعب تلك الشعيرات المجعدة في ذلك التجويف أسفل رأس ديانا، ضحكت وظللت أضغط على جفوني بشدة، وما زلت مستمرة إلى أسفل على جوانب الرقبة، ضغطات خفيفة شبيهة بتلك التي تسببها نتوئات شجر الصنوبر؛ يداي تطوق الشريان السباتي ثم تمتدان باستدارة الكتفين بأكملهما، كان جسدها دافئ وطري مثل عجينة فطيرة الآحاد عندما تكون جاهزة وبدوت أنا كتلك التي تقوم بالعجن تحتضن العجين وتظل ترتفع به وتنخفض.

وشملتنا رائحة قوية من خلاصة المشمش، أخذت ديانا زيت السمك من جينيا ثم سكبت كل محتواه على صدرها ثم أخذت تتلوى منزلقة مثل السمك النهري، وهي تبتعد عني، ابتعدت بيدي واختلجت رموشي حتى غاب آخر شعاع من ضوء الشمس فقد تراكمت السحب هناك، لنتنسم للحظات هواء الأوزون والرياح التي تعتبر لديها؛ فقط لا تفتح العيون، في بداية البعد تشتد النقمة والفجيعة وتزيد القدرة على الصمت، التي ترمي الكائنات الحية وتطعنها بالكهرباء، ترميني بذبذبة وتحيط بي ظلمة اللهب، إنها بلا بداية أو نهاية، ولا أحد لديها يسمى باسم...

فقط لا تفتح العيون، ولا تطلق اسماً، وها أنا أجلس معكم القرفصاء وأستند بظهري على الحائط ولا تبتعد، العيون المفتوحة....

- هل لديك... هل لدى حضرتك... أنا أعني... أقصد... هل لديكن قبلةٌ لنا؟

"لكزني عصفور صغير غاضب خارج عشه، ثم اختفى في الحال"، هكذا احتضنا بعض أنا وديانا عند عصا التربية البدنية بملعب الرياضة.

تذهب الشمس في الصباح وتهيج قطرات الزيت المتلألئة على رقبتها وهي تنظر نحوي بكل استغراب واندهاش، والضحكات تخرج عذبة من الأفواه.

إن ديانا بالفعل في الثامنة عشر من عمرها ولكني أرى أنها في غاية الجمال، بعد ذلك تشاجرنا مرتين بفرع من شجرة الصنوبر في مقابل ماسورة معدنية ملونة.

ذهبت ببطء حيث ابتعدت بوثبات خفيفة مع أول شعاع يمس العين من الشمس ويرغم الجفون على الانغلاق، أنا أقف هنا مستندة أمام ساق الصنوبر أتأمل الضوء للحظات وهنا علا صوت الميكروفون:

"انتباه"

وقد دوى الصوت في جميع أرجاء المعسكر.



نعم.. نعم.. لقد أصيب الكثيرون في هذا الصيف بالتهاب رئوي حاد، بسبب السباحة لفترة طويلة في الماء البارد، لقد أكدت ذلك طبيبة المقاطعة؛ ثم أدخلت سماعتها في حقيبتها الطبية وكانت أمي قد أرسلت سانتا إلى السوق لشراء العسل أثناء زيارة الطبيبة، وها هي قد عادت للتو من الجبل وقد ابتلت بماء المطر.

لا بأس حيث لا يرى إلا الهيئة التي وهنت ولم يعد يفكر في شيء آخر.

رفعت الطبيبة عينيها ونظرت في عيني أمي بشكل مبهم، لم تفطن أمي لتلك النظرة وارتعدت فرائصها وعضت شفتها السفلى وهي تحاول أن تبتسم، خرجت أمي والطبيبة إلى الدهليز، وأغلقا الباب خلفهما وتناقشتا طويلاً وباستفاضة وبصوت يبدو مرتفعًا إلى حد ما، يا إلهي ألا تستطيعون أن تتحدثوا هكذا في حضوري؟ هل أنا طفلة صغيرة أم ماذا؟ حينما أصبح أمًّا لن أتهامس أبدًا مع الأطباء، حينما كنت صغيرة رقدت من الخوف مرتين، أمي لم تقل لي شيئًا وكذلك الطبيبة، هل سأدخل فعلاً إلى المستشفى؟ وهل أوشك حقًا على الموت؟

لن تزول تلك البثور التي تركها الجدري في وجهي...!!

عادت أمي بمفردها ونظرت إلي بدهشة وعيناها تحلقان في أرجاء الحجرة وكأنها تود أن تعرف عما إذا كانت كل الأمور في نصابها، ولاحظت أنها تريد أن تقول شيئًا مهمًا:

- متى كانت آخر مرة لكِ؟

- ..ولكن أمي – بخوف شديد انتقيت ألفاظي – لست وحدي هكذا.

- أوه ... أنا فقط أسأل..!

ووضعت يدها على حافة النافذة وراحت ترتب الرف وتنظم الكتب بحرص وحركت شيئًا إلى أعلى وأزاحت شيئًا آخر إلى أسفل وأخذت تساويها بأطراف يدها.

- ولكن أتدرين؛ هناك من الممكن أن يحدث كل شيء، أتودين أن أصنع لكِ قليلاً من شاي الفراون شوهي ينبغي عليكِ الآن احتساء الكثير منه.

لم أتمكن من التصحيح لأمي؛ إنه ينبغي أن يقال الفراون ماتي وليس الفراون شوهي، الفراون شوهي سام والشاي منه من الممكن أن يكون كريهًا نوعًا ما؛ ولكنها متمسكة برأيها الفراون شوهي جميل وليس بإمكاني المناقشة فمفعول الدواء بدأ في الظهور.. ومن ثم...

وبعد ذلك ناديتها :

- أمي من فضلك اعملي لي جوجل موجل.

لا أود أن تعود أمي بمجرد أن يغلي الماء فأنا لا أريد أن تجلس على حافة السرير وتحدق في عيني وبيدها قدح الماء.

في الربيع كان خلاطنا تالف ويحتاج إلى نصف ساعة كاملة لكي يخفق البيض ربما نسيت أمي ذلك حينما كنت مريضة أن الشوكة تحدث أزيزًا، لم تضربني أمي قط حينما كنت مريضة والآن أنا مريضة جدًّا.. جدًّا...

- أوه كاترينا لقد انخفضت الحرارة وضاعت الحمى.

- ولكن متى؟

- في الجبال لا يكون هناك قيمة للأشياء.

- خمسة، ثلاثون، ستة، اثنان،.. هكذا، ما هو مجموعهم؟

- ثلاثة وأربعون يوماً.

- أوفيا... (Au weia)

وإذن هذا في المرة الأولى، والثانية... لا، الآن الجميع بجوار بعضهم البعض، لا يزالوا مرة من الأمام وكذلك خمسة ثم عشرة لا ربما ثمانية، وعلى الرغم من ذلك فإن أحمق مثل ذلك المرء يدر حول نفسه، إنه لا يزال غير ممكنًا سأحاول هذا مرة أخرى، يا إلهي.. يا إلهي، كيف يمكنني نسيان التجرد؟ وكيف يمكنني أيضًا نسيان هذه الرياضة؟

- ثلاثون؟ خمسون؟

أوه نعم إما هذه أو تلك، أو بالتقريب في المنتصف.

- صوفيا..! أوليج..!!

ولكن صوفيا كانت في "لاتجالي" (Latgale)، قامت بشغل العمل مكاني في حظيرة الخنازير المقملة في فينكيلاند وهي تذهب في أيام الجمع إلى صالات الديسكو في روبني، رأيي في صوفيا أنها لا تزال فتاة مراهقة تتسكع في الحانات، ولكني لم أفاتحها في ذلك، إن إبادة حشرة قمل الخنازير بالسم لا يعد عملاً حقيقيًّا أو جادًا لفتاة في الرابعة عشر من عمرها، في الصيف قبل الماضي عملت ولأول مرة بمزرعة الخنازير كنت في حاجة لبعض المال لكي أتمكن من الذهاب للرحلة الجبلية ومواصلة التعلم، بعدما علمت أن رعاة الخنازير يتقاضون أجرًا من مزارع البنجر والخضار، رائحة كريهة تسللت إلى أنفي للحظات وانكتم نفسي وتساقطت دموعي مع ضباب باهت يعكر الجو دلكت عيناي ونظرت حولي وعلى بعض الألواح الخشبية الآيلة للسقوط كانت أمهات الخنازير بعضهن يركضن في نشاط جم والبعض يأكل من المعلف وآخرون يرقدون مسترخين على جوانبهم ليرضعوا الخنازير الصغيرة، على الناحية الأخرى وفي نهاية الحظيرة مباشرة يوجد زوج من ذكور الخنازير متساوية في الحجم كأني لم أرهما من قبل، لها أنياب صفراء طويلة ومرعبة وأذن معلقة وأخرى مدلاة على العين تبدو نهايتها وكأنه يوجد بين أسنانها ماكينة لف الكرنب تنعر بصوت مغيظ ومهدد وأعلى صوتا من الآخرين، فحينما يدفع المرء إليهم بالعلف أو القمامة كانوا يصطدمون بباب الحظيرة بكل قوة ويحاولون الوصول إلى راعي الخنازير بلسانهم ذي الريالة الحانقة وزلوماتهم الخشنة المشوهة، ولقد أنذرنا أنه إذا ثار أحدهم فإن سبيل النجاة الوحيد هو الهرب عن طريق القفز فوق إحدى الإناث ثم لفت انتباه الذكور

هكذا وإلا يلاقي المرء حتفه فينبغي عليه التماسك حتى يستطيع الفرار بجلده.

الكثيرون أخافوني من أن أقطع إربًا من احد ذكور الخنازير ولكني عندما رأيتهم لأول مرة اندهشت حيث أني لم أر خنزيرًا أسمرًا من قبل.

- إنها حقًا سمراء..!

صمت وأنا مبتسمة بسرور لنينا، نينا تتحنحت ورسمت ضحكة مائلة على وجنتيها العريضتين حيث فتحت نف ثغرها الأعلى وظهرت مقدمة أسنانها قائلة:

- انظري...!!

وأحضرت خشبة طويلة من أحد الأركان اقتربت من أحد الزوجين ولامست بالخشبة أحد الخنازير السمراء الذي كان يرضع بطريقة همجية من أمه خنزير صغير مشاكس فنعرت الأم بصوت منخفض وسرعان ما تحولت البقعة التي مستها العصا إلى اللون الوردي كما لو أن نهاية العصا مثبت عليها كمية من الجير الوردي الذي يلون كل شيء يمسه، وهذه البقعة الملونة على ظهر الخنزيرة السمراء كلما وخزتها نينا أصبحت أكثر تفتحًا بعد ذلك ضحكت ولم أفطن لشيء فكان لدي شعور أن نينا تود أن تضحكني، وهمهمت:

- هذا سوف يصبح عملك الرئيسي هنا.

ودكت بقدميها المكان لكي تقلب الحبوب والقمامة من العربة، فأخذت العصا بعد ذلك ولامست بها باقي الخنازير وحدث الشيء نفسه أيضًا وعندما عم الظلام تابعت بعيني الزائغتين زوجًا من تلك الخنازير وقد بدأت أحاول فهم سر هذا السحر الغير مألوف.

تضرر من صياحي بعض ذكور الخنازير فحاولت كتم أنفاسي ولم يسمع شيء غير طنين الذباب؛ إنه القمل.. حشرة قمل الخنازير...!!

الخنازير الصغيرة قد تغطت من أعلى لأسفل بلون أسمر داكن وهي دائمًا هادئة إلا عندما يقوم أحد بإزعاجها.

- الخنازير تتألم؛ أعطيها القليل من اللبن ومري بحيث لا تموت تلك الخنازير الصغيرة من أكل القمامة.

هكذا أرشدتني نينا.

- خذي هذا السائل وهذه الفرشاة ثم اغمسي الفرشاة في السائل ونظفي أجساد الخنازير؛ بإمكانك ارتداء القفاز والكمامة ولكنها سوف تضايق تنفسك؛ اذهبي بدون كمامة.

في اليوم التالي تحاملت على نفسي حتى بلغت متجر التقنية الفنية الحديثة للوازم مزارع الحيوانات الجماعية وتكلفت شراء قفازين واقيين؛ فالسائل المسمم يحرق الرقبة والأنف، وهكذا ظللت أفهم وأتعلم الكثير، يبدو لي أن كل خنازير فينكيلاند غير نظيفة.

في حالة ما إذا أردت أن أتناول السم فإنه ينبغي عليَّ إيجاد الدافع القوي لذلك؛ ولذا فإني أذهب إلى هناك، في ذات يوم نظفت الخنازير وفطست حشرات القمل بعيدًا في الجرف المجاور للطريق الجبلي، ومرة أخرى احتجت لأسبوع كامل في حين أني لم أنته سوى من حظيرتين فقط وقمت بقتل جميع الحشرات التي تتسلل خارج مخبئها.

كيف وصلت صوفيا إلى هناك، بالنسبة لي البارتوت **(Partaut)** ليست ذات قيمة؛ حقًا إنها فتاة شجاعة جدًا ولكن بالرغم من ذلك...

- لا ، لم يأت الطلب.

هكذا صاحت أمي.

أنـا أيـضا لـست وحيـدة أو في عزلـة؛ يمكـنني في عـزلتي أن أسـبح بخيالي ولكن بدون إجهاد لذهني، هناك فنان وهو صديق لأمي كان قد نصحني قائلاً:

- لديك أم في غاية الروعة، كوني واثقة من ذلك.

وأبي قال لي مرة كلامًا قريبًا من ذلك، الجميع يقول لي هذا وأنا أصدقهم.



التسلق هذه الأيام أصعب بكثير من ذي قبل، أعض على نواجذي وأحسب خطواتي بحذر شديد وأنتقل إلى هناك وأواصل بقوة اليد مع الذقن حتى تلتصق ذقني بالترقوة والبلعوم وأضغط على ساعدي فتزداد خفقات قلبي، التي تتسلق على عنقي يمتلأ فمي بمذاق معدني غريب، وما زلت لا أرى الطريق الذي تحت قدماي بوضوح؛ نعل حذاء التسلق الذي أرتديه قد تمزق من كثرة المشي في الظلام الدامس، توك، توك، توك، توك...

ما زالت هناك بعض الخطى، واحد.. اثنان.. ثلاثة... حتى عشرة، ما زلت أواصل التقدم...

واحد، توك، اثنان، توك، ثلاثة...

لم أعرق من تحت إبطي؛ ويحتمل أن يلتصق مزيل العرق بكل مسام جسمي، توك، توك، .... ولكن أين يذهب عرق الإبطين؟ هل يأتي من غير تلك المنطقة؟

واحد، توك، اثنان، توك....

ما الذي سوف يحدث؟ ومتى يمكن للمرء أن يدهن كامل جسده بمزيل للعرق؟ وأين سوف يبقى العرق؟

ثلاثة، توك، أربعة، توك....

هل في داخل ذلك؟

آه أوفيا...

خمسة، توك....

ثم أتنفس ببطء من كثرة عرقي،..

ستة، توك....

وكم تكون المدة التي ينبغي على فيها أن أظل أفرز العرق؟ لحظات جميلة، سأنفجر...

سبعة، توك، ثمانية، توك....

هكذا سيمر قريبًا.. قريبًا جدًّا...

تسعة، توك....

يا إلهي.. كم تبلغ المسافة التي ينبغي علينا أن نمشيها؟

توك، توك، توك، توك....

- الأذرع – كروشكا صغيرة – قطعة كبيرة من أجلك.

تضع أنفاسك الملتهبة بجوار أذني مباشرةً وفجأة أجد نبضات قلبي تتلاحق بشدة.

"استراحة! جميع الرجال.. استراحة لمدة خمس دقائق!!"

فكان من الصعب أن أترك نفسي على حافة الطريق الوعر ساقطة كالرطل أدلك أكتافي المرتعشة المبللتين بالدماء، جلس إلي شخص ذو عينين رماديتين داكنتين، وأهداب سمراء، وسألني:

ها، ماذا ألم تعودي قادرة على حمل المزيد؟

نعم، .

أريني ما جمعتيه، هل تعتقدين أنه بإمكانك حمل الطعام إلى مجموعة بأكملها بمفردك، سوف أشد أذنيك.

لا يمكن أن تعتقد بي هذا.

وماذا عن هذه الصور الملونة؟

جميل.. جميل..

بحركة سريعة وضع محتويات جواله في جوالي وترك لي الجوال الفارغ.

نعم وبالمناسبة أنا أدعى أوليج، وأنا المشرف الثاني لمجموعتكم، وماذا تدعى الكروميلشن (الكتكوتة) اللاتيفية.

"كروميلشن"، - اعتصرت من شدة الخجل والحياء - إني لست عاجزة أو جبانة، فلماذا بمقدرة الآخرين حمل الأكياس بينما لدي أنا فقط الجوال الفارغ، وعلى كل حال شكرًا لك، إنك ودود للغاية أنت طيب لقد أنقذتني من السخرية لك خالص شكري.

كيف نطقت بهذا؟ كروميلشن...!!

أنصتي إلي يا كروميلشن سوف أحمل أمتعتك عنك ولكن حضري لنا الطعام، مفهوم!!

كلمة كروميلشن هذه لها رنين مثل التنويم المغناطيسي الحلو، إنها تستغرق لحظات في الحلقوم، وهي تذكرني بالشاي الذي كانت تصنعه لي أمي، كرووووميييلشن....!!

شكراً

لقد تأثرت لما حدث بأن سمحوا لي بتحضير كل الطعام ولهذا كان ينبغي علي أن أملأ كل الشنط بفروع الزعفر اليابس؛ والأجوال الصغيرة التي تخبأ فيها حبوب الريحان التي تطحن لتصير مسحوقاً، أجففها بنفسي وأخرج بنفسي، يااااااااااه... إني أفضل عاملة...!!

احذري يا كروميلشن..! أمال أوليج رأسه وصاح: واصلي العمل.

إنني مثل الجرادة، إنني كفراشة ذات أجنحة خفيفة، إنني معزة جبلية نشيطة، إنني أدندن بأغنية قصيرة لحشرات صغيرة، وأتقدم بخطوات خفيفة حيث أجتهد ألا أسرف في الضحك، وأخيرًا فأنا الوحيدة التي قاومت الجاذبية الأرضية...



بعد دقات الثانية عشرة عسكرنا في مكان عشبي صغير، تميل أغصانه الصغيرة على حافة النهر، شيء آخر يبدو من بعيد كأنه مجرى جليدي به تعرجات جليدية، بعض هذه المحارب الثلجية المرصعة بالأحجار الكبيرة والصغيرة تذكرني بهؤلاء الأشخاص كثيفي الشوارب الذين يوجدون عند حدود الغابات، البعض الآخر شبان رشقاء لامعين يتركون أحجارهم الخضراء ليقذفوني بها مباشرةً في وجهي.

ابقي حيث أنت حتى لا تضيعي هنا!

رويداً.. رويداً، كاترينا اهدائي إنهم ما زالوا بعيدًا عنا، اليوم لا يزال يسمح لكي بإخراج لسانك والأنين بصوت عالي.

وقد جلست بالفعل كاترينا على إحدى الأحجار وأخرجت لسانها وقالت:

إتششششش... يا إلهي كم أنا ما زلت طفلة.

اليوم لن نواصل السير الثلوج سوف تتساقط من فوقنا.

شرح لنا أوليج أن الصعود اليوم خطر جدًا، كذلك نصب لنا خيمة، فرحت طوال اليوم، تهاويت على قدمي حتى أبلل وجهي بالماء، وما زال هناك شيء آخر وهو أن الشاب لا زال يقطف لي الورد.

"ولكنها محمية طبيعية مفهوم..!"

هذا هو شينيا - بصوته الخشن - الذي كان يلعب، لم أطبخ في حياتي بمثل هذه اللذة في خمسة أوانٍ للطهي وفي نفس الوقت؛ شوربة خضار بالزعتر، ولحم خنزير بالصلصة والريحان، وأرز متبل بحصى البان والزعفران، أي متسلق للجبال كان يأكل كل هذه الوجبات الشهية في وسط الجبل، فقط الذين لديهم حظ مع الكروميلشن، ولا تعليق.

نظر أوليج نحوي وضحك، فلاحظت شعره الأسمر وأسنانه اللامعة، ديانا هي الوحيدة التي لم تمدح فنوني في الطهي ولكنها كذلك لم تمسح شفايفها بكم قميصها، قالت شكر ضئيل ثم غابت في نهاية المروج الخضراء حيث تشمخ هناك صخرة محطمة ثم تبعها شينيا على أقدامه.

ذهب الشباب للسباحة في النهر وأخذوا يغطسون في الماء البارد واحدًا تلو الآخر ينفثون في أيديهم ويضحكون من شدة البرد ثم خرجوا بسرعة واستلقوا في تلذذ وجففوا أجسادهم بقمصانهم الكروميلشن

لم تبرد لأنها لا تنزل النهر من نوفمبر وحتى أبريل وفي الشتاء تشارك في السباق البري ولعب الآسكي بإمكانها العد حتى عشرين رفعة وحوالي ثمانين ضغطه كذلك الكروميلشن تحب السير على أقدمها كما أنها تغطس في المجرى الدافئ وهي مرتدية قميصها ثم بعد ذلك تأخذ حمامًا دافئًا وهي ترتعش بشدة حتى يكاد قلبها يقفز خارج صدرها للحظات.

- ماذا إذن هل أنت مجنون أم ماذا؟

أصبع خشن وخزني في أعلى ذراعي كذلك ارتطمت أنفي بصدر قوي مفتول العضلات، أنا واقفة وأوليج ثابت في مكانه حركت رأسي وحاولت أن أنظر في عينيه؛ أمسك بي وأدار ذراعي الأيمن حول ظهري ووضع ركبتي بين ركبتيه...

- رويداً.. رويداً، أترغبين في أن تظلي هكذا بلا أطفال طوال عمرك أم ماذا؟

- إنني معتادة على الماء البارد.

انطلقت مغتاظة بعد أن نجحت في نزع شفتيه من جسدي.

- إنني لا أرغب بتركك بسبب هذه الحماقات، سوف أحصل على الكروميلشن الصغيرة ... مفهوم؟

وبالرغم من وضوح هذا تظل التساؤلات تملأ رأسي، عناد المراهقين يظهر في شكل قرض على الأسنان وهمسات صغيرة وشريرة، بعد ذلك استسلمت لأوليج تراخت قبضتي ولكني مكثت حوالي دقيقة ملتصقة به تمامًا مثل قميصه الملتصق بصدره، ألقت المهرة حوافرها في الهواء، ألصقت أذني بصدره وأنصت، كم تلمع عيناه، كانت الأجنحة مكسية برغوة بيضاء.

مهلاً.. مهلاً.. أود أن أريك شيئاً!!

ماذا؟

ألقيت بنفسي بشكل منتظم.

هل تودين أن تري التسيزل[1] المختبئ (Ziesel)

أمسك أوليج بيدي بكل لطف وأعادني إلى باطن الوادي..

أي تسيزل مختبئ؟

ماذا ألا تعرفين من هو التسيزل؟ تعالي معي إذن ولكن احذري أبقي صوتك منخفضًا إنه كائن خجول جدًا.

قادني وهو ممسك بيدي لدرجة أن ذراعانا كانا متلاصقين، وأنا كنت أمشي بخطى وئيدة للغاية بحيث أني أمشي ثلاث خطوات بقدمي لكل خطوة من قدمه لكي أحاول اللحاق به؛ ثم نزلنا سويًا في إحدى المروج واختبأنا في وسط الزرع وانتظرنا، فكان أوليج تحت مستوى كتفي وبيده وضع يدي في حجره واحتوى كفي بينما ظلت أصابعه الكبيرة تحتك بأصابعي ذهابًا وإياباً.

هسسسس... انظري

هكذا قال لي بصوت هامس، رفعت بعض الحجب من أمام عيني، فقط علي بعد أقل من مترين كان يقف شيء طويل بني وله عينا إنسان لامعتان يدور ويميل برأسه ويتشمم من حوله، من هذا الطريق وضع أوليج يده على شفتاي ليمنع صيحتي الأولى وهي في نصف الطريق وهذا أفضل، بعد فترة وجيزة أراني التسيزل الجبلي مرة أخرى الذي قليلاً ما يظهر كان يقف على قدميه الخلفيتين ويدير رأسه الصغير بفزع شديد في كل الاتجاهات من حوله وكانت عيناه البنيتان اللامعتان زائغتين في الفضاء

[1] التسيزل: جنسٌ من السناجب البرية موطنها الأصلي روسيا وشمال القوقاز تعيش في المناطق الجبلية، قد تنقل أحيانًا بعض الحشرات أو الأمراض المعدية للبشر. [المترجم]

العشبي الواسع من حوله وثب مرة أخرى هناك ثم ضاع منا في نهاية الأمر ثم تلاه ثاني وثالث، يد أوليج ما زالت على فمي، بسرعة تسيزل رابع، أزاح أصبعه شفتي بشكل غير ملاحظ ثم انحشر ببطء وحذر بين أسناني، ما زالوا ثلاثة يرابيع موجودين، ثم جاء واحد صغير وشكله مضحك حاول أن ينصب رأسه مثل الآخرين ولكن كان منظره مضحك للغاية وهو يتخبط ثم اختفى داخل الجحر المظلم، أخرج أوليج أصبعه من فمي ثم مرت على خدي بلطف ثم التف بيده حول عنقي ووضع شفتاه على شفتي؛ شفتاه طرية ورطبة، ريقه على ريقي، لسانه على لساني، بعد ذلك ابتعدت عنا التسيزل، أنفاسه عميقة.. عميقة للغاية.. أنفي على خدوده لا أعرف كيف أتنفس..

- ولكن لا تنسى إنه أكسجيني، أنت لي وأنا لك.

أطرافي تعلو وتهبط، ريقه مسكر غير معقول، لم يعد باستطاعتي فتح عيناي لرؤية أي من التسيزل، تربت يده على ظهري والأخرى تعبث بشعري، جمدت السيقان في مكانها وفقدت القدرة على الحركة لم أعد أهتم بالألم، تنفست في الهواء وفتحت عيني لا يوجد تسيزل أو أي شيء آخر...

- هيا يجب أن نذهب الآن، سوف يستغربون من تأخرنا كل هذا الوقت.

أمسك أوليج بيدي وساعدني على النهوض، وعدنا أدراجنا إلى المعسكر، أخذت علبة الألوان المائية وبعض الأوراق وملأت بعض العلب بالماء ثم تسلقت منحدرًا صغيرًا عن يمينه بعض الصخور ورسمت خطين باللون الأزرق الكوبلتي على شكل جبل شامخ ثم أرضية منقوشة على شكل خضرة يانعة تملأ أرض الوادي ثم فجأة بدلت الفرشاة بأكملها إلى اللون البني وملأت الورقة بسرعة بنقاط بنية.

اليرابيع في كل مكان!!

تقف التسيزل بطول اللوحة وعرضها، وتسيزل تقفز على الحشائش وأخرى تستحم في ماء النهر وبعضهم يتسلق الصخور والبعض الآخر يمعن النظر نحو قمة الجبل وتظهر بعض التسيزل الملائكية وهي تسبح في وسط السحاب، يا إلهي إنه غزو السناجب.

آه لقد جلستم طوال اليوم تتابعون التسيزل؟؟

جلس شينيا بجواري بعد أن أفزعني بتعليقه، تشبعت اللوحة بالألوان؛ وهناك تسيزل بني عملاق يبدو وكأنه يتحرك بخطى ثقيلة بعرض اللوحة حتى يتلاقون جميعًا ليتضاحكوا سويًا.

ولكني أحضرت شيئًا لكي.

ثم أخذ رسمي البدائي وألقى في حجري باللؤلؤية الحمراء، احمرت وجنتي وألقيت بنظرات خجلة نحو المخيم، أوليج هز جواله حتى يمتلأ، كما أن ديانا لديها سروال بكيني أحمر فاقع اللون تندس داخله أردافها الممتلئة لتبدو شامخة في الهواء.

- هل تسمحي لي بالاحتفاظ بتلك اللوحة؟

- هذه.. لا ، (وهززت رأسي في عناد) ولكن من أجلك سأرسم واحدة أخرى.

- سآخذ تلك.

- ولكني أريدها أنا أيضًا.

- مساء اليوم ينبغي علينا أن نجلس سويًا لمشاهدة النجوم، هل تعرفين هناك واديًا آخر بالكاد تقف السيارة الضخمة عند مدخله وفي هذا الوادي تكتمل كل الأحلام والأماني عندما ينظر المرء إلى الشهب الساقطة من السماء.

- حقًا بالنسبة لي هذا يملأني بالأحلام بعكس الآخرين، وذلك مثل الشروع في عمل لوحة جديدة

كانت ماء غسيل الفرشاة بالفعل لونها بني ولكن المعالم الجبلية ينبغي أن تميل إلى الزرقة حتى تتكافئ مع لون مزارع البطاطس.

- وأنت يا ترى ما هي أمنياتك؟

- تلك لا يسمح للمرء بقولها؛ وإلا لن يُصَدق بعد ذلك.

- هل أحضر لكي ماء نظيفة؟

- شكراً، ولكن اليوم عندما نذهب سوف يكون الجو بارد هل ينبغي علينا تناول الشاي؟

ثم أغلقت علب الألوان بأغطيتها.

- اذهب، سأبقى أنا هنا لبعض الوقت.

ضحك شينيا في نفسه ثم صاح، كيف أني حزمت أشيائي السبعة وقمت وأنا مترددة قليلاً ثم اندفعت أركض سريعًا إلى الخلف نحو المنحدر، في المساء شربنا الشاي سويًّا واستمتعنا بمشاهدة النجوم، كنا أنا وديانا وأوليج وشينيا وأربعة شبان آخرين من خارج مجموعتنا، لا أحد منا يجيد العزف على الجيتار، سيرجي وجينا استمرا في الاستعداد بالأمس حتى وقت رحيلهما وقد حظى أول خمسة آلاف بالتجمع حولهما، وفلاد ما زال مبتدئًا ويحرم وادي اليرابيع على المبتدئين وهناك مثل روسي قديم يقول:

وليست الدجاجة كالعصفور، كذلك ليس المبتدئ كالمتسلق.

لقد نصبت الخيام بالفعل كالعادة طبقتين من قماش فضي اللون وطبقة أخرى من القماش النايلون الأحمر الفاقع المخصوصة للخيام لتكون دليلاً يرشد على مكان الخيمة في الليل.

كان الشبان الأقوياء يختارون النوم في أي الخيام حيث يقومون ببسط أكياس معدة خصيصًا للنوم بداخلها، كذلك فعلنا أنا وديانا مثلهم، وعندما حل سكون الليل الآن حقًّا هذا الأخير الذي أثار اهتمامنا، وانتهزنا فرصة الدور التالي في حمل المقعد في لعبة الكراسي الموسيقية تلك.

- هل لا يسمح للفتيات إلا بالجلوس في النهاية على الأحجار الباردة المكشوفة أم ماذا؟

- حسناً، لقد حان وقت الذهاب للنوم.

انتابت أوليج نوبة جنونية فوقف على أقدامه وصاح:

- في الثالثة والنصف صباحًا ينبغي علينا تناول القليل من الشاي والذهاب إلى سفح الجبل عند شروق الشمس.

الشبان سمعوا الكلام ثم تسللوا إلى داخل الخيمة وأخذوا يتطلعون نحونا بتشوق وسرعة ولكن الفتيات كن منشغلات بمعرفة علم النجوم والأفلاك، أحقًّا توجد هناك سيارة ضخمة أم ماذا؟

وهل السيارة الضخمة أصلاً حقيقة أم خيال؟



- لن أنام بين فاسيكا وميشا.

هكذا همست لي ديانا بتبرم شديد

- اللتان لديهما الكثير من الكلام السخيف.

- أترين سوف أذهب إلى نيكولاي، أترين كيف أنه أكل منذ وقت قليل البصل النيئ لقد التهم كل مخزوني الإضافي منه بدون أدنى اهتمام بما ينبغي عليَّ طهيه في الصباح.

- ينبغي علينا أن نظل جالسين هنا لبعض الوقت.

تهفو على كل منا ذكرى الترانيم والألحان الكنسية العذبة آه.. تلك هي الحالة الشاعرية، عمومًا فأنا متعبة الآن نوعًا ما من نيكولاي، لقد أطلق عليّ اسم "باخ شتيلتس" أي حوض سباحة الأطفال إنها ليست بكلمة سيئة بالنسبة لي كما أن كلمة العصفور الصغير تبدو في غاية اللطف لكنها تحمل معنى الخوف والفزع الرهيب في الثقافة الروسية.

- ترياسو جوسيكا.

لا أعرف كيف يمكن للمرء التلفظ بكلمات بذيئة إلى هذا الحد كأثداء مهتزة وأرداف مترجرجة إنه في غاية التخلف.

- لا تخفن أيتها الفتيات نحن لن ندع هذا المتوحش سوف نمزقه إلى قطع صغيرة بسبب الجوع الذي ألحقه بنا.

ضحك شينيا بهدوء وبصوت هادئ، ديانا ترتعش قليلًا لكنها بقيت جالسة في مكانها؛ الآن سوف ننام وسيظل هذا الجبل الشامخ الذي لم أقدر على صعوده يطل علينا بشموخ من علٍ.

أخرجني أوليج من كيس نومي ثم ذهب بي لننام في تلك الخيمة الحمراء، ثم تسللت من خلفة بخفة وحذر كما يتسلل الفئران لكي أتجرد من البنطلون والبلوفر الثقيلين اللذين أرتديهما ثم استلقيت على عش الريش الناعم البارد هكذا...

ومن ثم.. أين ذهبت تلك السوستة اللعينة؟ آه.. ها هي.. نعم... حقًا... وفي سرعة البرق جذبتها حتى ذقني والتففت حول نفسي داخل الكيس، وهناك احتمال أن تأتي ديانا لتنام بيني وبين ذلك الشاب وكل هذا مرتب له وإني آمل أن يحدث هذا.. أرجو أن يحدث بشدة...

آه.. يا للسماء، آمل ألا يحدث هذا ولكن لا يقوله أحد غيري لا يوجد شخص بمفرده إني أتألم من أجلها أحترق ببطء أصلب على عجلة متحركة بطيئة ولكني لم أتحرك من أجلها، رائحة عرق هبت نحوي قادمة من مدخل الخيمة لذلك رائحة الأحجار الساخنة عندما تتساقط عليها أولى قطرات الندى، حقًا هل يهطل الندى في الخارج بالفعل؟ ابتلت مقدمة شعر أوليج فجذبني بعيدًا ثم غطى وجهي ببقايا منديل مبلول.

- لا.. لا.. لا تنام الفتيات بجوار حائط الخيمة...!!

هكذا صاح متوعدًا ورافعًا سبابته أمام أنفي فالتففت داخل كيس نومي ثم انسحبت مثل الشرنقة نحو منتصف الخيمة.

- وها هي حقًا باردة.. إنها بالفعل باردة للغاية...

ثم ألقى بنفسه جانبي وقد استلقينا على ظهرنا سويًا بجوار بعض كيس نومه عليّ وذراعه تحت رقبتي، شينيا وديانا غطّا في نومٍ عميق...

- هل تعرف لماذا ينبغي على المرء أن يضع رأسه في جهة مدخل الخيمة عند النوم في المخيمات الجبلية؟

التف أوليج نحوي وضحك وبالقرب منا كان يسود ظلام كثيف، ما زلت الاحظ تلك النغرة التي في وجنته لدى أوليج اثنان أما أنا فلدي واحدة فقط على خدي الأيسر.

- حتى يصبح للمرء فرصة في النجاة إذا باغته انهيار جليدي مفاجئ ولا يوجد غير بضعة فتحات كهوف تصلح كمخابئ.

كنت أشرح له بحماس تلميذة صغيرة.

- هكذا إذن...!!

ثم ضحك أوليج وهو يداعب شعري..

- ولكن السبب الحقيقي هو طواف المتسلقين السود
- من؟ المتسلقين الـ.. ماذا؟
- المتسلقين السود.
- لهذا الموضوع قصة طويلة.
- تعلقت بيديه حتى انكمشت بين ذراعيه.
- هل ينبغي عليّ أن أحكي لكِ عن هذا؟
- كما تحب...!!
- منذ سنوات كثيرة كان يعيش شاب متسلق للجبال في غالية اللطف مع زوجته الطيبة وقد كانا يترافقان في كل مكان يذهب إليه أحدهما؛ وفي ذات يوم صعدا معًا إلى قمة جبل عالٍ وقد كان الطقس في غاية السوء والجليد يهطل بغزارة شديدة بحيث كان المرء بالكاد يمكنه السير في الطرق المهدة وقد كانت تسير متقفية آثار زوجها ثم اشتد تساقط الجليد، وفي لحظة خاطفة استدار الشاب وأراد أن يقول لزوجته أنه من الأفضل الرجوع الآن ولكنه لاحظ فجأة أن زوجته قد اختفت.

في البدء لم يصدق نفسه لقد كانت متسلقة بارعة للغاية ولكنها سقطت في صدع صخري، وظل يبحث عن زوجته يومًا إثر يوم عبر كل الممرات والمضايق ونزل إلى كل الصدوع المنحدرة ولم يعثر على أي أثر لها في أي مكان ولا يزال حتى اليوم لا يمل من البحث عنها فهو يسير كل ليلة وعندما يلمح إحدى الخيام المنصوبة يدخلها ويحدق في وجوه النائمين بداخلها ليتأكد بنفسه إذا ما كانت زوجته ما زالت حية وهي فقط تستريح هنا ولكنه عندما يرى وجوها لا يعرفها فإنه يرجع لينام بجوار مدخل الخيمة عند أقدام النائمين وقد ينفعل في بعض الأحيان فيمزق

الخيمة ثم يهيم على وجهه نائحًا ومولولاً وقد يختار إحدى الضحايا الغير محظوظات ليلقي بها إلى الهاوية.

وفي الليالي الهادئة يمكن للمرء أن يسمع بوضوح أصوات بكائه وعويله وهو يتجول من حافة إلى أخرى وصدى صوته يدوي بين الصخور.

- ما هذه القرقعة التي في الخارج؟

هكذا همستُ بصوت منخفض للغاية.

- لا شيء.. لقد تحرك مجرى جليدي وسوف يجيء نحونا ببطء.. ببطء شديد، عندما يبدأ المتسلق الأسمر في العويل سوف تدركين حينها أنك أصبحتِ آمنة.

- هذا مخيف للغاية..!!

- لا تخافي يا كيتي من اليوم لن ينالك المزيد من الخوف، ولكن يا ترى أين سيكون ملاذك ومخبؤك الآمن؟ هل تعلمين أنك ربما يدركك الموت بسبب التجمد، في الجبال الجليدية ينبغي على الناس النوم متلاصقين بجوار بعضهم البعض.

أخذت أصابع أوليج تعبث بسوستة كيس نومي، ثم أخذ يفتحها ببطء حتى آخرها بينما أخذت يديه تطوق خصري ثم جذبني نحوه...

من خلال بريق النجوم الذي يتسرب عبر فتحة صغيرة عند مدخل الخيمة بدا لي أوليج كما لو كان شبحًا متين البنيان قد اسمرَّت بشرته بفعل وهج الشمس وقد كان ذراعي الطفولي يبدو شاحبًا وهو ممتد تحت منكبيه مثل قطعة الكريمة الذائبة في الشيكولاته الساخنة.

توك، توك، توك، توك... توك، توك، توك، توك....!!

وقد كان الإيقاع الرتيب لقضبان السكة الحديدية ينيمني، وكانت الرياح العاصفة تدفعني للتحديق أكثر في ملامح أوليج، قد كانت شفتاه تفوحان برائحة اللبن الطازج ولعابه له طعم رحيق الشهد المستخرج من زهور الربيع...

- تعالي يا صغيرتي.. تعالي يا كيتي...

لففت يدي حول عنقه وأصغيت بها إلى صوت نبضاته التي تشبه حركة الحصان.. نعم... إنها تركض هنا قطيعٌ كامل من الخيول الشابة الفتية تتسابق في حرية ونشاط وبدون لجام يقودها أو يشدها إلى هذا الاتجاه أو ذاك، بسرعة تكاد تخترق الرياح، تتلاصق أجسادها وتتشابك ذيولها حتى كأنها تبدو مثل فرس واحد عملاق.

يد أوليج تتسلل ببطء نحو بطني الرطبة؛ يده جافة ودافئة تلدغ بنعومة شديدة الحزام المطاطي في أعلى سروالي، يا إلهي.. يا إلهي..

- سروالي القطني.. هذا مخيف، لا.. ليس بعد... أرجوك...!! أنا ما زلت...

أرخى شفتاه الرطبتين نحو عنقي المرتجف، انكمشت حول نفسي.

- من فضلك.. أرجوك... ألا تسمع.

أخذ يقبل رقبتي وهو يغمغم:

- لا تخافي يا صغيرتي، لا أحد.. لا أحد أبدًا يمكنه أن يمسك بسوء، لا... أحد... يستطيع... أن... يؤذيك...

وصل همسه إلى أذناي ثم أخذ يخفت شيئًا فشيئًا هناك عند تلك النغرة حيث ينتهي الفك وتبدأ شحمة الأذن ثم إلى أسفل حتى الكتف والظهر أدرت رأسي إلى جانبي ثم مددتها إلى تلك الجهة وقد طالت ارتعاشتي حتى بلغت جسدي بأكمله بقوة وبعنف.

- أوليج.. إني ما زلت...!!

- أعرف.. أعرف.. لا تخافي يا حبيبتي ولا تخشي شيئًا، صبرًا.. صبرًا جميلاً، إن هذا ليس سوطًا لكِ يسبب لكِ آثارً قاسية محترقة على كتفيكِ، كذلك لن يمزق شفتاك الحريريتين، صبرًا.. صبرًا جميلاً...

لا أرى نجمًا وحيدًا في السماء يداه تتزلقان في نعومة حتى باطن ركبتي ثم تصعدان إلى أعلى في نشاط حتى تلمسا أردافي وخصري بأكمله، أشعر بعصير خلاصة شجر البتولا الدافئ ينساب على جسدي حتى يصل إلى أسفل قدمي، اخترق أنفي عبير ساحر ينبعث من فتحات مسامه ما زلت أحاول التملص منه ولكن محاولاتي لم تزد عن كونها مجرد فكرة ووجدتني أقف مباشرة على حافة الهاوية اندفعت أتنسم ذلك العبير الذي استطاع أن يهيج شهوتي، ظللت فترة واقفة أنظر نحو الهاوية تهتز الأحجار من تحت قدمي ما زلت أطمع في التشبث بنتوء أو فرع شجرة متحجرة، لا.. لا... ثم سقطت....!!

- ساعدني.. أنا أسقط.. أنا أسقط... أنا أسقط ....

التهم أوليج صراخي بنهم وأخذ يستنشق زفيري ويبتلع معه خوفي بداخله

- لا لن تسقطي... بل ستطيري وترفرفي.. أتحبين الطيران...!!

- أمسك بي ولا تفلتنِي، أرجوك امسكني بقوة، أتوسل إليك لا تتركني أسقط.

دعك خدودي برموشه، وأخذت أتحسس لجامه الخفيف بين أصابعه الدافئة، ها هو ذا مُهري.. فرسي المحبوب.. حصاني البني الأشهب تراجع عائدًا بهدوء إلى بيته.

- لا أحد يستطيع أن يؤذيك... والآن نامي يا صغيرتي وأنا سوف أظل أربت عليكِ حتى تدخلي في النوم وفي الصباح سوف أستمر في هدهدتي لكِ وسوف أستمر وأستمر.. نامي يا حبيبتي.. نامي.. نامي.. الآن...



بالطبع لم أحكي لأمي عن أي شيء مما حدث وبالتأكيد فإن السبب معروف، أمي لديها علبة مجوهرات مغلقة ومخبأة تحت صحارة ملابسها وهناك حيث يوجد أيضًا بها صور لنساء ورجال عرايا كنت قد عثرت عليها هناك في أثناء سفر والديّ في رحلة سياحية إلى جمهورية ألمانيا لقد كانت في نظري صور حمقاء يظهر الرجال فيها ذوي قدر من الوسامة بينما تبدو النساء قبيحات بعض الشيء وأنا لدي علم بأنه لا توجد فتيات جميلات في ألمانيا وإن أفضل من لديهم قد أخذوهم من هنا مثل إيرنا التي تجمع القواقع والتي يمكنك رؤيتها فقط وهي تسرق الفراولة أو عندما تترك كلبها يتبرز أمام حديقة منزلنا، إن هذه المجموعة من الصور توجد داخل ألبوم صغير ذي غلاف ملون وله قفل فضي مفتاحه بجانبه ويحتوي هذا الألبوم على ألوان من العبث وغرائب الأمور ومعظمها عن أبي، بالطبع أنا لا أصدق كل ما هو مكتوب منها ولكن أمي تصدقه وهي قاسية بسبب ذلك ثم إن المرء إذا صدق كل ما يقرأه أو يسمعه سوف تبدو له الحياة في غاية الكآبة ولهذا السبب فإني أحب أن آخذ جميع أمور حياتي بمنتهى البساطة وبالرغم من ذلك فأنا أظن أن أمي كثيرًا ما تكتب أو تراسل إحدى صديقاتها أنا لا أدري على وجه اليقين أنها لديها بالفعل صديقات ولكنها يمكنها إيجاد إحداهن عن طريق استحضارها في خيالها لدي كتاب عن افتراض وجود أصدقاء وهميين وهو ربما يكون بالنسبة

للبعض عبارة عن كتاب كامل مملوء بالهراء والسخافات ولكنه ليس كذلك بالنسبة لي ومع ذلك فأنا بلا أصدقاء سواء في الواقع أو في الخيال باستثناء سانتا بالطبع ودون ذلك أصدقائي من نسج خيالي هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه لا توجد أي روابط صداقة بيني وبين أمي، لن أخبر أمي بأني قد قرأت مذكراتها كما أنها لو علمت بحدوث ذلك سوف تكون في موقف محرج للغاية وبالمناسبة لدى أمي صديق هو ذلك الفنان ولا أظن أن لديها أصدقاء آخرين لقد بذلت أقصى جهدي أحضرت كوبًا من الشعير وأخفيت المفتاح أسفل منه على الرف إن كل أسرتنا لا يحبون الشعير ولهذا فإنه أثمن مكان في بيتنا.



لا يوجد تشابه بيني وبين أوليج في المظهر الخارجي شعر أشقر وبشرة صفراء وغالبًا إذا ما رزقنا بطفل فإنه سيكون ذا بشرة سمراء لأن الجين المتسبب في جعل لون البشرة أسمر سائد بينما الجين المتسبب في اللون الأشقر يعتبر جينًا متنحيًا.

هل يكون أسمر خالصًا ؟

أم يكون ملونًا ؟

عندما يطلي شخص ما ورقة بلون أسود بحيث يكون جانبها المقابل أبيض اللون ولكن إذا امتزج اللونان سينتج لون ثالث أفضل.

هناك أنواع عديدة من الورق مثل ورق التلوين "الجواخي" وورق الخطابات وورق الفاتمان وهناك أيضًا الورق المطبوخ (المُصنَع من القمامة) ويتم إنتاجه بأقل التكاليف ويتم استخدامه بعد القليل من المعالجات ليصير جاهزًا لكي تصب فيه فطائر الكريمة مثل تلك التي تخبزها لنا جارتنا

إيرنا والحق يقال أنها أشهى وألذ بكثير من تلك التي تحضرها لنا أمي وغالبًا ما تحضر لنا إيرنا دستة من فطائرها المصبوبة في قوالب من ورق الألمونيوم تجلس على منضدة المطبخ وتنتظر حتى تعد لها أمي القهوة ثم تدعوني لتناول بعضًا منها ولكني أرفضها بحجة أني قد أكلت حالاً ولا أستطيع تناول المزيد ، وعندما تعود إيرنا إلى منزلها تلومني أمي على ما فعلت وتقول لي أي قد أهنت جارتنا اللطيفة وعندما أخبر أمي أني لا أحب تناول الكعك الذي تصنعه إيرنا تكتم ضحكها ثم تضع باقي قطع الكعك في الثلاجة؛ في المساء أتسلل إلى المطبخ بحذر لأتذوق كعك إيرنا يوجد سبع قطع على الطبق أخذت اثنتين ثم أعدت ترتيب باقي القطع كما كانت لكي لا تلاحظ أمي أني تناولت شيئًا منها؛ في صباح اليوم التالي خبزت لنا أمي بعض قطع الكعك تناولت واحدة وأخذت أخرى وذهبت إلى حجرتي لكي أكمل مذاكرتي بعد برهة ذهبت إلى المطبخ وبدلتهم بكعك إيرنا الذي استطعمته أكثر من كعك أمي وقد فرحت أمي للغاية لأنها ظنت أني فضلت كعكها على كعك إيرنا؛ كلب إيرنا هو حقًا صديقي الوفي وكلما خبزت أمي المزيد من الكعك كلما زاد الكلب ضخامة.



نهضت في تمام الثالثة والنصف صباحًا لا يوجد إطلاقًا أفضل من الشريط اللاصق لعلاج الجروح الناتجة عن تشققات الكعبين يثبت الشريط اللاصق عليها ثم توضع داخل حذاء برقبة وها أنا ذا أصبحت أتحرك بسهولة كالنموس الجبلية التي تسكن بجبال القوقاز وتلقب بسادة الجليد.

جزء بسيط من العمل يعقبه ألم شديد مثل عندما تتحشر الأصابع في سوستة البنطلون ويكون هذا الانحشار البسيط للحظات مثل الكي بالنار.

ليس لدي بأي حال من الأحوال ما يدعوني للقلق فلا أحد يستطيع أن يمسني بسوء وعلاوةً على ذلك فأنا يمكنني تدبر أموري بشكل جيد.

ما الذي جاء بي إلى هنا ؟

ولم أتيت ؟

ولمن جئت ؟

"شهرٌ في قلب الجنة؛ وأحد عشر بين باقي البشر".

- هنا في الجنة تتلاحق كل الأحداث بسرعة جنونية، لا يهرم أحد الجميع يتمتعون بالصحة والنشاط، لا يوجد لدى أحد أوقات فراغ تتيح له التفكير في مشاكله أو تعذيب نفسه بالسؤال المقيت (وماذا بعد ؟) في هذه الـ(ماذا بعد) الكثير من التأخر والتخلف يا كترينا.

وعاودت المضغ بملء فمي كما تُلعك قطعة اللبان التي ذهبت نكهتها ولكنك لا تملك إلا الاستمرار في المزيد من المضغ حتى يتألم الفك من كثرة قضم تلك القطعة عديمة النفع.

قبل النوم يبذل المرء جهدًا كبيرًا في التفكير ويجرد استيقاظه ينسى كل ما دار بعقله ولا يفكر إلا في الدخول إلى دورة المياه.

في هذا الصباح استيقظت مبكرًا وذهبت إلى دورة المياه وأخذت بالمقص خصلة كثيفة ومتلبدة من شعر رأسي.

- بعد أسبوعين يا كترينا وتعلمين إلى أي مدى تتباعد أطرافها، وها هي هناك تقع السيارة الضخمة (جروس فاجن) وهي تقف بشكل

مائل، وفي كل ركن تصبح اللآلئ البيضاء معروضة للبيع، ألا تعتقدين ذلك يا كاترينا، أرجوك لا تفكري، لا تنامي، أرجوك لا تغلقي جفونك يا كترينا.

حولت آذاني ناحية أوراق زهور اللوتس العملاقة ثم أنصت واستجمعت أنفاسي لأتشمم كل قطرة من رحيقها، يتفتح الجلد لتمتص كل المسام والشعيرات الصغيرة.

ماذا سوف يحدث لكِ، سوف يطمع في المزيد، خذ.. خذ... خذ....!!

هنا يوجد المزيد والمزيد، يوجد ما يكفي الجميع وزيادة، الذي هنا لا يضر أحد حتى النهاية، ليس مرة واحدة فقط توجد قطع زيادة كهذه.

- هنا يسمح لك بهذا؛ حقيقة كل شخص وما يفكر فيه، هل تكون الجنة أبدية بلا بداية أو نهاية؛ سوف تستمر وتستمر، هكذا تكون الجبال، وهكذا يكون الحب أيضًا خالدًا أبدًا ولذا فإنها هكذا...



- لا ترهقي نفسك هكذا من البداية ولكن قسمي جهدك يا كروميلشن بالتساوي.

استسلم أوليج إلى ضحكاتي بدفء وحنان ثم مشى مختالاً في خطوات مرحة نحو الغابة، الآن تغرب الشمس ويعم الظلام جميع الوادي وفجأة يسطع ضوء مبهر ليملأ ذلك المكان، ضوء قادم من بين الجبال وها نحن نقف على أقدامنا وهناك جدار ثلجي ضخم يسد الطريق من أمامنا تأهبنا لتسلقه ألقينا بحبالنا نحوه ووضعنا سيورنا عليه وجهزنا بنادقنا وخطافاتنا وكانت قد تجمدت أطرافنا التي تعمل في هذا الجدار. ثبت حذائي على السلم وأخذت أصعد بجهد دءوب وكان هذا المغفل ينظر نحوي ويبتسم بشماتة لظنه أني لن أقدر على مواصلة الصعود، وأخذت أواصل تسلقي بنشاط نملة مجتهدة ثم استفززناه لمناوشته.

- "حقًا قد كان مخططًا لهذا فيما سبق عبر هذه الأخشاب المتحجرة التي نتسلقها، فووت[1] ولكن كيف نتابعها كان لدينا بالأمس العديد من الانهيارات والتصدعات الصخرية العنيفة وهذه الكتل لم تعد متماسكة كسابق عهدها وأصبحت تلك المنطقة هناك في غاية الخطورة".

هكذا وضح لنا شينيا.

- "ولكن بالرغم من كل ذلك دعونا نحاول فعلها!!"

هكذا نطقت كاترينا المرتعشة بصوت أشبه بزقزقة العصافير قادم من أعماقها وهي متدثرة بسترة سميكة محشوة بالريش ومع ذلك فقد محت الريح كلماتي.

أنا أكره الثلج. إنه بارد وقاس. الثلج لا يعرف الرحمة وهو دائمًا هكذا في كل أحواله.

صنعنا من أنفسنا فريق تسلق ثلاثي وعلى المرشد أن يتأكد دائمًا من أن كل المتسلقين يمكنهم الاعتماد على أنفسهم والثقة بها إلى أبعد الحدود.



حذائي.. حذائي...

تمزق من حد المعول،

هذا مؤلمٌ وصعبٌ للغاية

وها أنا ذا ذاهبة للقارب

(١) أداة بالروسية بمعنى على كل حال.

لأثبت بندقيتي على إحدى جوانبها

وأعود لأكرر من جديد

حذائي.. حذائي...



أمشي بحذر شديد.. خطوة بخطوة.. خطوة بخطوة...

الثلج قاسٍ ومخيف...

ينبغي عليّ أن أحسب خطواتي التي أمشيها حتى أتأكد من تثبيت معولي بالجدار واتزاني عليه، في تلك اللحظة سقطت قلنسوة سترتي على عيني أزحتها بعيدًا وبقيت بالكاب فقط؛ هبت نسمة ريح باردة وقاسية على خدودي وأذناي، تطايرت بعض فتات الثلج على وجهي؛ دمعت عيناي من الألم ونظرت نحو الأسفل، يا إلهي، يا إلهي.. يا إلهي...

- "ها نحن تجمعنا مرة أخرى حسنٌ للغاية".

هكذا تفهم أوليج أزيز نبراتي التى صدرت كنسمة ريح.

- "بالفعل مائة متر قد اجتزناها من خلفنا وهذا هي فقط ربع المسافة ولا يزال أمامنا بعض الأمور ثم نقف لنستريح شيئًا يسيرًا في نهاية الأمر".

مائة متر فقط، يا إلهي.. يا إلهي...

دعكت عيناي وذرفت الكثير من الدموع بشكل لا إرادي بسبب لفحات الهواء الباردة والأهم من ذلك أن كل شيء يحدث بشكل صحيح ومضبوط.

- الخُطافات.. البندقية.. الحبل...
- الخُطافات.. البندقية.. الحبل...

تقدمت مترين عن طريق تلك الخُطافات واجتزت حوالي عشرة أمتار أخرى بواسطة رفيقي في السير بالحبل "فاسيكا" والآن ينبغي عليّ أن أظل متشبثة بكل طاقتي على الجدار الجليدي بواسطة خُطافاتي حتى أستطيع الاتزان والرسوخ ثم نتسلق المرتفعات سويًّا ، الآن أضع كل ثقتي بين يدي فاسيكا فإذا سقط ينبغي عليه فعل شيء ما نحوي كأن ينقذني بهذا الحبل مثلاً ، كذلك المعاول و الخُطافات تحمي أيضًا فهي تحمي أيضًا من السقوط فعن طريقها أستطيع إحداث تجاويف وثقوب عميقة وكافية لكي أتمكن من التسلق عليها على شكل سلم، ولكن بالرغم من كل هذا فإني أسقط!!

أفففف هذا غير معقول!!!

هذا الجليد الأحمق؛ لقد حاولت مرات عديدة طرقه بالمعول ولكنه يصمد ويصمد أمام طرقاتي عليه وها هو في النهاية يستجيب لي بووووف.

يا ترى أين معولي الآن؟

آه ... ها هو ذا ، نعم، أحمله ثانيةً ، معولي جميلٌ مثلي.

صوت طرقعة جافة ، قطعة جليد ضخمة مكسورة تتدحرج نحونا من فوق المنحدر الجليدي العالي ، تجمدت يدي على مقبض المعول وفجأة صدرت مني صرخة مدوية؛ لقد فلتت قدمي وانزلقت على الجليد ، دفنت أنفي وسط الثلوج...

كل شيء حدث بسرعة فائقة في غمضة عين، وعندما بلغ كاحلي طرف الحافة شد فاسيكا الحبل.

فاسيكا يحميني، كعبي الجميل يدافع عني، كاد كعب حذائي بالفعل أن ينقذني ولكني واصلت الإنزلاق بسرعة فائقة، في أثناء انزلاقي كنت أترك آثارًا على سطح الجليد تشبه تلك التي تتركها ماكينة قص الحشائش، حاولت تثبيت طرف معولي ولكن الجليد كان في غاية التماسك.

بلا أمل.. بلا أمل...

كما تتمدد القطط على سقف الصفيح المتجمد، سريعًا.. سريعًا في لمح البصر، الحياة حلوة... لا... لا.... من فضلك.... أين أنت يا أمي؟؟

ارتطم وجهي بشدة في الجدار الجليدي، أخذت أنظر بحرص إلى أعلى، كان الفزع يطل من عيني فاسيكا وأقدامه ترتعش بشدة...

- "أيها المجانين...!!"

صاح شينيا بكل قوته، وعندما صاح نحوي كنت قد بدأت أستعيد توازني...

- "هل ما زلت على قيد الحياة؟"

هكذا سألني بصوت خالٍ من أي أثر لخوف أو فزع.

- "كل شيء محسوب بدقة!!"

هكذا أجبته بعد أن فوجئت بهدوئه التام.

- "هل ما زلتِ بخير؟"

لا يزال الجميع بخير حتى الآن، كان شينيا هو أكبر المرشدين الموجودين وضعني في حبل واحد مع أوليج بدل فاسيكا.

- "لا يفلح فاسيكا في شيء سوى حفلات المساء".

هكذا قال لي شينيا.

- "هذا يمكن اجتيازه بسهولة في كل مرة، لماذا يبدو اليوم في غاية الصعوبة؟"

هكذا بدوت وأنا أنسحب من بينهم.

- "آه.. نعم...!! هل تعرفين كم المسافة التي تبعدين عنها بالطائرة؟"

- "ستة أمتار، لا بل ربما سبعة..".

- "خمسين...!!"

استرسل شينيا:

- "خمسين مترًا، ولا يوجد لديك سوى كاحلك فقط الذي تضعينه على الأرض، وعندما تفلتين إلى الخارج لا يوجد لدى هذا المعتوه سوى الحبل فقط الذي يمكنك التشبث به".

لا أبعد كثيرًا عن مكان السقوط، لديّ حيلة نحو فاسيكا، لن أستمر في هذا، أحاول حماية نفسي عن طريق شريكي في الحبل.

- "أها.. أنت نبيهة جدًّا"، هكذا زام شينيا.

سوف ننظم مواصلة الارتفاع والتسلق بالحبال لعشرة أمتار أخرى مليئة بالدماء.

- "شينيا...!!"

ارتفعت إلى أعلى، بمجرد أن بدأنا نواصل الصعود إلى تلك الهضبة.

ما هذا الذي بوجهي؟ ولماذا لا أشعر به على الإطلاق؟

- "هنا الجو في غاية البرودة، عندما ننزل من فوق الجبل بالحبال، أتعرفين ذلك الشعور، فقط بدون خوف، هذا ليس سيئًا، أنت مصابة فقط بندبتين وأنف مكسور، هذا الأنف الجميل الصغير".

أخرج شينيا يده من القفاز وأخذ يدلك أنفي برفق وعناية بالغة، تمنيت من داخلي لو أن هذه هي يد أوليج.

لا يزال لديّ شيء يسير من الخوف...

حذائي.. حذائي... معولي....!!

حذائي.. حذائي... معولي....!!

بعد ضحك متواصل استمر لمسافة ثلاثمائة متر جلسنا سويًّا على الحافة لكي نأخذ استراحة قصيرة، قعد أوليج أمامي ومسح بمنديله بقايا الدماء من على وجهي وأخذ يطيب خاطري، سوف أذهب إلى فاسيكا لأقول له إن كل شيء على ما يرام ولكن أوليج لم يتركني أفعل ذلك، وقف فاسيكا بمفرده بعيدًا، رأيت أن وجهه المصاب بالجروح والندبات يكافئ دموعي المنهمرة...

- "دعني...!!"

وفي تلك اللحظة أفلت من يدي أوليج وذهبت إلى ذلك الشاب المسكين في الناحية الأخرى وأمسكت بيده، لم ينطق فاسيكا ببنت شفة وإنما كان فقط يتشنف باكيًا.

المسافة الباقية نحو القمة غير ممهدة وهي تمثل أمامنا مرحلة أخرى من الخطورة حيث يوجد صخرتان كبيرتين أعلى الحافة الجبلية، ثم إنه عندما نجتاز مترين أو ثلاثة أعلى الجدار الجليدي فإن هناك صخرة ضخمة تشرف أمامنا، ذهب أوليج إلى القمة وقد بذل جهدًا كبيرًا في هذا ولكنه لم ينظر إلينا أو يلتفت إلى الخلف..

إنه لذيذ للغاية.. في غاية المرح...!!

. أول شيء شعرت به على قمة الجبل هو الضعف والإنهاك الشديد، أحب متعة التسلق ولكن غالبًا ما تطرأ عليها بعض المنغصات، تلك الجبال المغطاة بالثلوج والتي تشبه بياض الحليب، ولكني أخاف من بردها الشديد، جلس أوليج وأخذ يزحف نحوي زحفت نحوه حتى إذا ما دنوت منه لكزته في كتفه بودٍ شديد وعندما لم يصدر منه أي رد فعل ثنيت عليه بأخرى.

- "أتعرفين، هذا يكون في أسوأ الظروف".

قالها لي عندما بدأنا في العودة لكي نستعد للذهاب إلى الأمسية الدافئة والخلود إلى النوم.

- "هذا الأحمق فاسيكا؛ لم يتعلق بحبل أبدًا من قبل، إن الحبل إما أن ينقذك أو يكون هو سبب هلاكك".

ظللت أفكر في كاحلي عندما تعلق ثم هوى أحسست حينها بغصة في حلقي، لم أرد قول أي شيء عندما كنت معلقة في الهواء ولا أستطيع التحرك أي خطوة أخرى، في الأحوال الطبيعية تنتهي مثل هذه الأمور بنهايات مؤسفة.

- "تيا...!!"

تنهدت بعمق في وجهه، ما هذا الذي يحدث في الأعلى، أمر في غاية الغرابة، قمة الجبل.. أخ... كيف لا أزال أرغب في الصياح، نعم ما زلت خائفة...

هللويا...!!

يا لروعة تلك المناظر وجمالها، أي انتصار المرء يشعر به عندما يتسلق تلك المرتفعات، التقطت صورة لنفسي وأنا أحمل المعول بيدي وتظهر

خلفي قمم الجبال الثلجية...!! ولكني لا أريد المزيد من هذا، لا يوجد هنا المزيد من تلك العواصف الثلجية، هنا الجو في غاية البرودة، هنا أكثر الأماكن وحشة في العالم، وهذا لأن الجليد والصخور تمتد هنا إلى ما لا نهاية.

لا توجد حشرة وحيدة..

لا يوجد عصفور يطير بمفرده...

تشعر هنا بأن الصخور غريبة بعض الشيء، تشعر وكأنها خرساء باردة وربما عنيفة أكثر من غيرها، هنا لا تستطيع جدل ضفائرك مع بعضها في مرة واحدة.

على كل حال فإنه لا تزال هناك بعض القمم لم نصل إليها بعد أعلى منا، لاحظت طائرة فضية اللون تبدو في غاية الصغر بحيث يمكن اصطيادها من فوق الجبل وظهر هذا الصَّدع الذهبي عندما تحولت السماء إلى اللون الأزرق الصافي بدون أي مقدمات، كم أرغب في أن ألوح لهم هاتفة:

خذوني معكم، لا تتركوني بمفردي في هذا الفضاء الرحب، لا أستطيع أن أظل هنا، هذا شيء لا يحتمل.

إني خائفة..

أرجوكم... أرجوكم...

لا تتركوني أنا ما زلت صغيرة...

صغيرة جدًّا...!!

والجبال كبيرة للغاية...

أنا أعرف، نعم، أعرف أنه لديكم وجهة نظر جيدة ومثيرة أيضًا للاندهاش، تجلسون لمشاهدة مقتنياتكم من بطاقات البريد اللامعة والتي تحمل صورًا لبعض الجبال والمرتفعات ولكن لا تدركون أنها تكذب عليكم وتخدعكم، البطاقات البريدية التي شكل الجبال تبدو في غاية البشاعة وذلك إذا اشتدت حرارة أشعة الشمس، من فضلك خذني معك.. أرجوك أنقذني.. أرجوك... أرجوك...

ولكن دوى صوت عاصفة ثلجية شديدة وبدأت أشعر ببعض الألم في أُذناي الرقيقتين...

لم أسمح لأحد بالتوقف، كم أكره هذه القمة للغاية، ما أصعب على نفسي أن أتماسك حتى لا أجهش ببكاء هيستيري أو أدك على الأرض في غضب بحذاء التسلق الضخم الذي أرتديه، لا يسمح لي بفعل مثل هذه الأمور، لعل هناك أحد يمكن أن يفهمني، تمثل الجبال بالنسبة لبعض محترفي التسلق دين وعقيدة تجعلهم يتعصبون لها حين تكون القمة بالنسبة لهم تعني حياة كاملة، إنهم لا يعرفون على كل حال ما ستصير له الأمور في النهاية، ما يعني هذا أن يكون المتسكعون من الروب والتي حتى يطلبها أحد للرقص حتى أنني أفلحت أحيانًا في نسيان تلك الأمور..

آه ...

أوليج.. أوليج...!!

لو أنك تعرف كم أنت سيئ....!!



أيضًا لا أستطيع أن أحكي لأبي شيئًا من هذا، هو أب في غاية الروعة ولكنه يصبح أحيانًا غاضبًا نوعًا ما، ذات مرة قلت له "blad" في

ذلك الوقت لم أكن أعرف ما تعني هذه الكلمة ولكني كنت أقصد بها معنى لطيفًا لطمني بشدة على فمي وعندما كررتها لطمني ثانيةً وعرفني أن تلك الكلمة سيئة جدًا، حقًا يجب على المرء أن يكرر الكلمة مرتين قبل أن يتلفظ بها حتى يدرك حقيقة ما تعنيه، في الحقيقة إن أبي لم يضربني إلا في مرات قليلة ونادرة جدًا.

كنت أنا وصوفيا لا نزال صغيرتين وكنا نبحث في الثلاجة عن آيس كريم لأنه لم يكن لدينا ما يكفي لشرائه من المحل بحثنا داخل الفريزر ولكنا لم نجد شيئًا سوى بعض المكعبات الثلجية الصغيرة وضعناها داخل فمنا وأخذنا نمصهم في هذا الوقت أتتني فكرة رائعة؛ ماذا لو وضعنا مكعبات الثلج لتذوب في الشاي بعد يومين أحضر أبي معه كحول ومزجه بشراب السفرجل وكنت قد وضعت بعض مكعبات الثلج في الكوب وعندما شرب أبي شعر بتغير في الطعم نظر إلينا في غضب وسأل من منكما فعلت هذا؟ وكالعادة صمتنا سويًا بدأ أبي في الصراخ قلت له: لقد سمعت كلب إيرنا ينبح ويبدو أن إيرنا مشغولة بتحضير الكعك؛ لم يلطمني أبي على فمي سوى هاتين المرتين وبالمناسبة إن أبي شخص في غاية الطيبة وهو يعمل طبيبًا بيطريًا لعله يفرح إذا أصبحت أنا أو صوفيا دكتورة بهائم.. لا دكتورة بهائم ليست كلمة جيدة أفضل منها كلمة طبيب بيطري حيث أعيش بين طيور الكناريا والقطط والكلاب ربما أدرس في أكاديمية ريفية كما أن أبي من جانبه لن يعترض ولكنه في الآونة الأخيرة كثيرًا ما يتكلم عن الانتقال للعيش في المدينة حيث يمارس هناك مهنته كطبيب بيطري حيث ينشغل بكلاب المدينة، ذات مرة ذكرت أمام أبي رغبتي في دراسة علم المعمار أجابني بالرفض الصريح:

- "أنت مخطئة إذا ظننتي أنك بالمعمار تستطيعين أن تنفذي ما تحلمين به غالبًا عندما يريد المهندس المعماري بناء شيئ ما ولا يجد لديه الإمكانيات التي تساعده على فعل هذا فإنه غالبًا ما يلجأ إلى الدخول في

الحزب الشيوعي – الكميونة – وأنا لا أريد لكي أن تصبحي مناضلة شيوعية في يوم من الأيام".

هذا سر عظيم؛ إن أبي لا يحب الشيوعيين ولا يريدني أن أصبح واحدةً منهم.

أبي أحيانًا يسأل أمي عما ترتديه هل هو جديد فتجيبه بأنها تمتلكه منذ فترة طويلة وعندما ينظر لي أومئ له برأسي مؤكدةً على هذا، دائمًا ما تبدو أمي حزينة وخصوصًا عندما تغير تسريحة شعرها بأخرى تزيد من حزن منظرها لا أعلم سببًا لحزنها الدائم بينما تبدو في نظري هي الأجمل بين كل النساء.

عندما كنت صغيرة كان أبي يرسلني كثيرًا لإحضار طبيب لجدي وفي الخارج أرى صوفيا تلعب بحوض سباحة للأطفال أتمنى أن أشاركها اللعب ولكن ينبغي علي إحضار الطبيب لجدي وأذهب للطبيب وأنا أعض على أسناني من شدة الغيظ ولكن جدي يعاني من آلام شديدة تجعله يقضي فترات طويلة بدون نوم، كان يغضب منا إذا رفضنا الجلوس على مائدة الإفطار في الصباح كان يحب أن يرانا نتناول الإفطار بينما رشف فنجان قهوته الصباحية مع قطعة كعك ويحدث هذا في تمام الثامنة يوميًّا، كنا نمكث عنده أيامًا أنا وصوفيا في أثناء الإجازة الصيفية، كانت صوفيا تستلقي علي السرير وتلوي شفتيها في امتعاض:

- "هذا الأبله العجوز..".

هكذا كانت تقول دائمًا فكنت أكتم فمها بيدي.

منذ سنتين سكبت صوفيا إناء من الزيت المغلي على قدميها عندما رآها أبي قال لنا: احمدوا الله أنها لم تصب سوى القدم فقط، كانت ماما تأخذ صوفيا في حضنها حتى يستطيع أبي أن يغير لها الضمادات كنت

أقف معهم ولكن عندما كانت تبدأ صوفيا في الصراخ كنت أركض إلى الخارج وأظل أحمد الله أن إصابتها جاءت فقط في القدم والحقيقة أن صوفيا كانت بالفعل فتاة في غاية الشجاعة لأنها لم تبكي سوى مرة واحدة عندما حاولت أن أغير لها الضمادات، كانت تعجبني اللؤلؤية التي في منتصف رأسها وتجعلها تبدو مثل الهنود ولكن أختي الصغيرة كانت ترى أنها تبدو مثل الوحش، ذات يوم اصطدت جرادة كبيرة خضراء مسكتها من أقدامها ووضعتها في جبهة صوفيا كان لها فكٌ حاد وكبير ويسيل منه لعاب غريب الشكل.

نحن نقضي معظم فصل الصيف مع جدي، كنت أقول لصوفيا: إن عقلها تبخر من اللؤلؤية التي في رأسها، أحيانًا كان يبدو لنا الجد في غاية اللطف وخصوصًا في تلك الليالي التي يسمح لنا فيها بالسهر لمراقبة الخفافيش التي تخرج في ظلام الليل، أذهب مع صوفيا إلى الفناء المجاور لنا ثم نجلس في صمت على أرجوحة القنب الجبلية لننظر كيف تتماوج الأجنحة الجلدية المظلمة في ضوء القمر.

عادةً لا يسمح لنا بالجلوس خارج البيت بعد حلول الظلام لأن الخفافيش تخرج في الظلام، في بعض الليالي كان جدي يعنف أبي لأنه كان يأتمنني على بعض أسراره وفي وجهة نظر جدي أن الأطفال لا يمكن ائتمانهم على الأسرار وهذا يحزنني جدًّا ولهذا السبب أيضًا فإن أبي أقرب إلى قلبي من جدي لأني أعشق من يضع ثقته في ويأتمنني على أسراره، هناك بعض الأمور المشتركة بيني وبين جدي ولكني مع ذلك أجد صعوبة في التفاهم معه.

لدى جدي جارة بدينة دائمًا ما أجدها واقفة عند السور لتتابع ما يحدث لدينا من خلال فناء المنزل أحيانًا أجلس معها لتحكي لي عن القنافذ:

- "جميل جدًّا طعم القنافذ وخصوصًا عندما يتم وضعها في طبقة طينية ودفنها في وسط جمرات نيران المعسكرات الشتوية".

غير معقول أن يستمتع بعض الناس بالتهام هذه الكائنات البشعة، ملتهمة القنافد تلك لها حفيدة من سني وقد صاحبتها لبعض الوقت ولكن الآن لم نعد كذلك منذ تلك المرة التي كنا نجلس فيها سويًّا داخل حوض السباحة بدأت في شد سروالها إلى الأمام ومدت يدها داخله ثم أخرجت شيئًا وحشته في فمها عندما رأيت هذا حولت عيني بعيدًا وعندما كررته أكثر من مرة سألتها: ما هذا الذي تأكله، أجابتني سانتا بكل بساطة:

- "هذا برازي وطعمه رائع ينبغي عليكِ أن تتذوقي شيئًا منه..".

اعترضت وشكرتها باشمئزاز شديد ولكنها أصرت على أن تقدمه لي ووضعت هذا شرطًا في استمرار صداقتنا سويًّا، وقد كانت سانتا لفترة طويلة هي صديقتي الوحيدة وينبغي علي أن أستجيب لبعض طلباتها الغريبة والمجنونة بعض الشيء لأني لا أرغب في خسارتها ولكني عندما فكرت بجدية وجدت أنه من الأفضل أن أعيش بقية حياتي بدون صديقة عن أن أفعل شيئًا مقرفًا مثل هذا الذي تطلبه مني كما أنها ليست صديقة جيدة تلك التي تجبر صديقتها على تناول برازها.

الوحيد الذي يستطيع فهمي في كل من حولي هو صوفيا التي كنت أضع لها الجراد داخل فمها.



الهبوط من القمة هو الجزء الأكثر خطرًا في رحلتنا الجبلية هذه، حتى عندما يراعي المرء اختيار أسهل الطرق أثناء الرجوع، في طريق العودة من القمة تقل قدرة المرء على التركيز ويزحف التعب في العضلات والهواء

المسكر يجعل متسلق الجبال خفيف العقل بشكل خطير وطائش مثل الذبابة السكرانة من عصير شجرة البتولا أميل لأسفل مع تلك المنحدرات الصخرية المغطاة بالثلوج وأنا أدندن بكلمات أغنية عيد الميلاد.

من يعرف.. من يعرف... كيبورسكا....!!

انتهت الانهيارات الجليدية وها نحن قد وصلنا إلى المجرى الجليدي العملاق، لا يزال الجليد يتساقط بشدة منذ البارحة ولم تسطع الشمس إلا منذ وقت قصير، طبقة الجليد الجديدة تغسل الجبال وتكسوها بثوب أبيض من جديد.

نركض إلى الأسفل بخطوات منتظمة مثل طابور من الأوز.

- "فقط في آثار قدمي".

يتخذ شينيا بيننا موقع القائد حيث يقودنا أثناء الرجوع.

- "نعم.. نعم... في آثار القدم، في آثار القدم".

أقلد صوت القائد في خفوت مثل حركات القرود.

- "لديك القدرة على فعل هذا، أنت تركضين عبر طبقات الجليد الخفيفة لكن يجب عليّ أن أمر عبر هذا الوحل المنتشر، حاولي القفز عبر حقول البطاطس، عندها سوف نرى حقًا كيف تكون السرعة..".

كاترينا ليست فلاحة قادمة من الحقول أو المزارع، إنها ظبي رشيق مُحلى بزوجٍ من الأقدام الرقيقة لا تكاد تقدر على قطع بعض الأمتار القصيرة.

انظر.. ما ألطف هذا، ما أصعب حركة القدمين بين الثلوج وأقدام كاترينا الصغيرة مختفية بين الثلوج، كاترينا الحمقاء تفتح ذراعيها تحاول أن تتحول إلى نجمة بحر، حامل المخلة تغوص أقدامه في الجليد.

- "دووووورا"

صاح أوليج بصوت مدوٍّ كاد أن يصم آذاني، ولسبب غير معروف استلقى على بطنه وأخذ يزحف نحوي بحذر.

- "لم تتمسك بمعولي يا دووووورا ...!!"

جلس ثم ضحك لي حتى بدت أسنانه اللامعة:

- "ماذا كان هذا إذن؟"

- "إذن أنت.. أنت... لو أني..".

كان أوليج يلهث وهو شاحب الوجه كأنه قد جفت دماؤه ويجري بدلاً منها حبرًا أسودًا داخل شرايينه:

- "لو أني.. لو أني.. لو أني لا أحبك جدًّا لكنت الآن غير قادرة على الكفاية...!!"

أنا لا أفهم حتى الآن.

- "حقًّا فلتنظري بنفسك!!"

زحفت على بطني بعد أن مسكني بشدة حيث استطعت الوصول لإلقاء نظرة داخل حوض الجليد، يا إلهي.. يا إلهي...

داخل الحوض شرخٌ كبير أشعر وكأنه ينظر نحوي ويبتسم بشماتة، إنه عميق جدًّا لدرجة أن المرء لا يستطيع رؤية نهايته، أحملق بعيني داخل الهوة ولا أستطيع الوصول إلى قرارها، شعاع التنويم المغناطيسي الأخضر المائل إلى الزرقة يقترب من شفتي ويبقي الصراخ مكتومًا بين الأسنان، أوليج يعود لجذبي ثانيةً.

- ربما تريدين قذف بعض العملات المعدنية إلى أسفل لكي تحسبي الزمن الذي سوف تستغرقه حتى تصل إلى القاع؟"

هو يبدو دائمًا غاضبًا انكمش حول نفسي ألف ذراعي حول الحذاء وأضغط على وجهي بين ركبتي أرتعش وأشعر ببردٍ شديد مُفزع قماش البنطلون البارد يحتك بخدودي تكاد دموعي أن تتجمد.

- "حقًا جيد، كروميلشن صغيرة مثلك واستطاعت الوصول حتى هنا بالفعل هذا أمرٌ جيد".

هكذا كان أوليج يهدئني وهو يربت عليّ:

- "لا يزال أمامنا سوى مسافة قليلة حتى نعود إلى الأسفل، فقط لا تبكي.. لا تبكي سوف نتناول العشاء سويًا اليوم وسأصنع لكِ الشاي بنفسي ولكن لا تبكي يا صغيرتي.. أرجوكِ لا تبكي...!!"

رفع أوليج ذقني نحوه وبدأ يقبلني، قبلة طويلة لزجة ذاتَ طعمٍ مالح. قَبّلَ أنفي الجاف باستمرار بينما ظلت شفتاي متجمدتين، ما زلت أجلس منكمشة ولكن لم أعد أرتعش ثانيةً، لسان أوليج كان قد أذاب حبات الجليد من بين أسناني، ثم قمنا لكي نواصل الطريق.

عندما عاودت هذا التسلق الصعب ورأيت تلك الدجاجات الملكية القوقازية التي يطلقون عليها هنا اسم (أولار) أحسست أن الحياة عادت تدب في من جديد، وتلك الجبال المظلمة تتخذ رائحةً عطرية في بداية الفصل وعرق أوليج الدافئ في ملابس النوم المبتلة.



ربما تُسَر صديقتي سانتا بأوليج لأنها لديها جندرس فيترا ولن نحتاج أن نتقاسمه سويًا كما في السابق.

- "والآن احكي لي، كيف كان هذا؟"

هكذا صاحت سانتا وهي تلكزني بالوسادة حتى أجلس وأحكي لها. خطفت شراب (الجوجل موجل) من يدي ولعقته بأصابعها حتى آخر قطرة.

- "لا أعرف حقًّا من أين أبدأ ، لقد حدث الشيء الكثير..".
- "ومن طلب منك أن تحكي كل شيء مرةً واحدة".
- "لكني أريد أن أحكي لك كل شيء.. كل شيء..".
- "ولكني أستطيع أن آتي لكِ غدًا وبعد غد وكل يوم لو أردتي!"
- "حقًّا...!!"
- "لو أن ما ستحكيه سوف يكون مثيرًا..".
- " عندما أصبت بالتهاب رئوي أحضرت لي أمي لبن بقري دافئ سوف أحضر لكِ غدًا قليلاً منه".
- "شكرًا لكِ يا سانتا"

ضحكت وأنا ممسكة بيدها.

- "هيا ابدئي بالأكثر أهمية".
- "هناك كانت توجد نيران المعسكر، وكنا قد عانينا كثيرًا ، لم يحدث هذه المرة بشكل جيد لم تكن الصحة كما ينبغي لكن قبل كل شيء عديني أنك لن تخبري أحدًا بهذا الأمر..".
- "حسنًا.. لن أحكي شيئًا".

سانتا تخدش بأظفارها أسناننا بصوتٍ عالٍ.

- "لن تخبري أي شخص"
- "من ينبغي عليّ أن أقول له شيئًا؟ اطمئني"

- "كلمة شرف"

- "أتعرفين أنا أحب حقًا بشكلٍ جنوني، غارقةٌ في الحب..".

- "ياه، يا كاترينا...!!"

تخفي سانتا نظرة الإعجاب في عينيها.

- "حقًا... من توم؟؟"

- "أنت واهمة أنت وصوفيا!! ماذا لديكم نحو هذا التوم الأحمق".

- "ليس توم، إذن من يكون"

- "شابٌ آخر، أقصد رجلاً..".

- "رجل... يا كاترينا أيتها المجنونة أنت الأذكى!!"

- "حقًا.. إنه جميلٌ للغاية!!"

- "من يكون إذن؟"

- "لكن فكري جيدًا فيما قد وعدتيني به".

سانتا تخمش أسنانها بأظافرها مرة أخرى وتنحني تمامًا بالقرب مني.

- "يمكنك أن تهمسي في أذني تأكدي لن يعرف أحد".

كنت أحدثها وهي تسمع بشغف شديد، هكذا سانتا عندما يكون هناك حديثٌ عن الرجال كانت رأسها تدور ولعابها يسيل، في الحقيقة إنها لم يسبق لها خوض تلك التجربة ولكن لديها الكثير من تلك الحكايات الغريبة التي دائمًا ما تبدأ بكلمة:

- "ماذا لو كان، إذن..".

أنا أصدق أن سانتا مثارة طوال الوقت.

- "أوليج"

_ "من...؟؟"

كانت تحدق في وجهي بشدة كأنها أول مرة تراني فيها.

- "أوليج"

_ "من هذا؟؟"

_ "معلمي"

_ "هل هو روسي؟!"

_ "أجل، بالفعل... لكن..".

_ "لا أرجوكِ لا تقولي هذا"

_ "ما هذا أنت تضغطين بشدة على حروف كلمة روسي أتريدين أن يسمعك البيت كله".

_ "أريد أن أقول لكِ شيئًا، لن أستطيع أن أفعل شيئًا مما وعدتك به ولكنك تبدين على ما يرام".

_ "سانتا... انتظري....!!"

_ "أنت مريضة ألا تسمعين مريضة..!"

_ "انتظري..".

_ "أعيدي لي الصورة الآن فورًا..!"

سحبت الغلاف البني من تحت وسادة الرأس وأعطيها لسانتا، جذبتها من يدي بشدة ثم خرجت من الحجرة.

_ "من فضلك لا، يا سانتا..! من فضلك انتظري...!!"

_ "الآن أعرف أنا أيضًا لماذا يقول الجميع أنك سريعة التحول، لأنك سرعان ما تسأمين...!"

كانت لا تزال تصرخ على الباب.

_ "سانتا...!"

أستطيع أن أفهم بشكلٍ جيد يا سانتا كانت أمك وجدك وجدتك في سيبريا يؤسفني أني الآن يجب أن أجلس ثانيةً بمفردي، آمل أن لا تحكي شيئًا من هذا على الأقل لزملائنا في الفصل، كما أنه من الأفضل استردادها هديتها لأني كنت أشعر بألم شديد عندما أتخيل منظر سانتا وهي تنظر لحائط غرفتها الخالية من الصورة بسببي وتتمنى لها ليلة جيدة.



بعد ظهيرة اليوم التالي نتدرب في معسكر المستجدين، مساء اليوم تُقام نيران المعسكر ثانية، حيث يظل معظم متسلقي الجبال في الخلف حيث يستمتعون بالاحتفال بوقتهم، على الفور قمت بإلقاء المخلة داخل حجرتي عندما لاحظت بقعة حمراء فوق المخلة رباط حذائي مفكوك حتى آخره لدرجة أني كدت أنقلب أثناء المشي بسرعة.

- "جينا.. جينا... لو أنك تعرفين...!"

هكذا ناديت بمرح من بعيد وقفزت قفزة عالية.

- "لو أنك تعرفين...!"

- "أنا أعرف حقًا يا صغيرتي، أنا أعرف هذا حقًا".

تبدو الشمس متوهجة أكثر من اللازم بينما ألف قطعة من الحرير حول عنقي قلت باندهاش:

- "كيف؟ ماذا تعرفين؟ من أين تعرفين هذا؟"

- "أنت حقًّا مختلفة تمامًا".

- "آه هكذا إذن... مختلفة تمامًا!"

- "لا لست مختلفة، أنت تعبقين بالنساء".

- "لكن كيف...؟"

- "لا تسأليني الآن يا صغيرتي، هذا الكلام لم يحن موعده الآن".

- "آه حقًّا..! المعذرة، اتنتظرون في الأعلى؟"

- "أمممممممم...".

هكذا كانت تغمغم جينا بسرور.

- "لكن أين سيرجي؟"

- "سوف يأتي حالاً".

تردد جينا وهي تخفض طرفها:

- "سيكون هنا عما قريب..".

أنحني وأحاول النظر لعيني جينا أو جعلها تنظر ناحيتي.

- "لا تخبريه بهذا، اتفقنا؟"

- "واضح يا جينا فقط أنا وأنت على علم بهذا".

- "أي شيء يكون هنا في الحقيقة يكون غير مرتب له، نحن ضعنا في أثناء العودة، منذ ست سنوات وأنا أتسلق الجبال مع سيرجي لكني لم أره أبدًا ضعيفًا مثل هذه المرة".

- "مذا تريدين أن تقولي بهذا الكلام؟"

وفي هذه اللحظة يدخل سيرجي وخصلة من شعره الأسود تغطي عينيه ويبدو بجسده المحني قصير القامة وهو يتقدم خطوة خطوة.

- "أهلاً يا سيرجي..".

هكذا رحبت به وأنا أركض خلفه، ألقى كيس مخلته وأخذ بذراعي ثم عانقني ونحن واقفون في منتصف المعسكر وأحكي له بصوت منخفض في أذنه من كل ما حدث لي هناك فوق الجبال بدايةً من التسيزل ثم المتسلقين السود والجياد والأولاد والسيارة الضخمة وانهيارات الجليد والطائرات اللاتيفية.

- "لم أفهم كلمة مما قلتِ ولكني استمتعت به".

- "لقد كان كل ما حدث في غاية الروعة، لن أحكي لأحدٍ آخر غيرك شيئًا مما قد حدث".

- "لدي شيء لكِ...!!"

- "حقًا..".

- "اصبري قليلاً حتى المساء سوف أهديه لكِ مساء اليوم؛ فقط لكِ بمفردك".

- "حسنًا سوف أصبر قليلاً حتى المساء"

أنتف بضعة شعيرات من خصلته السوداء ثم أركض بعيدًا عائدة إلى حجرتي.

المساء سوف يجيء بعد قليل، حيث تتوهج نيران المعسكر وتجتمع حولها الكثير من فراشات الليل، وسيرجي سيغني.. سيغني كما لو كان يغني لي فقط والأغنية لا تخص أحد سواي، أغنية عن فتاة من البلطيق

تنمو لؤلؤية حمراء أمام بيتها ممتلئة الفروع، أبحث عن أوليج بعيني طوال الوقت لم ألاحظ أبدًا أنه كان يختبئ هنا خلف جذع الصنوبر في صمت، كان المرشدون لا يشتركون معنا حول نيران المعسكر الكبيرة، لن أرى الليلة سوى سيرجي فقط وأنامله الرقيقة وهي تقفز برشاقة على أوتار القيثارة وصوته اللطيف الذي يعصف بفروع أشجار الصنوبر، فكي يرتعش وأفكر للحظة في أن أولي ظهري وأنصرف، لا أحد هنا يعلم مدى شوقي للعودة إلى الوطن ولكن ينبغي أن أبقى لأيام وليالي أخرى، سوف تمر عليّ العديد من الليالي التي سوف أقضيها بمفردي داخل جدران البيت، أتفقد فيها تلك الخطابات الطويلة الغير منتهية القادمة من لييننجراد ذات الهوامش المزودة بالملاحظات والقصائد الشعرية الأكثر جمالاً، التي كنت أقرأها لمرات ومرات عديدة، كم سررت بها في الربيع السابق وكم بكيت على صديقتي جينا، سوف أحكي لسيرجي كل شيء أيضًا عن أوليج وهو بالتأكيد سيساعدني في الحصول على رقم تليفونه، في هذا الصيف لن يأتي سيجيء للجبل؛ صيفه الخالي الأول بعد عشرة مواسم متتالية وبالتأكيد سيرفق مع خطاباته إشارات مرحة سأستمر في تضميد الجراح بدلاً من توقيعي برسم شكل جبل صغير يسقط عليه شهاب من السماء، سوف يخبرني بالإصدارات واللوحات التي قد رآها في الحفلات الموسيقية والعروض المسرحية التي شاهدها لكنه كان نادرًا ما يحكي عن نفسه.

- "قد مرضت قليلاً وأستلقي الآن في المستشفى".

سوف يعترف ذات يوم،

- "لكن هذا ليس سيئًا للغاية، لأنه يرى كيف أبدو مضحكة".

قرب الشتاء تقل خطباته إلى حدٍّ ما، الملاحظات والهوامش لن تكون موضوعية.

- "سيرجي ١٩٨٦، المستشفى"

بهذا التوقيع سوف أحصل على أخبار على مدى نصف سنة كاملة من لينينجراد حتى أدرك بشكلٍ كامل أنني ينبغي عليّ أن أكون هناك.. معه... أضع رأسه في حجري وأربت عليه، ثم بعد ذلك أسرع لكي أخبر أمي أني سوف أسافر إلى الريف، ينشلون من غلاف خطابها بالاحتياطي السري ويصعدون إلى قطار لينينجراد، سأنتظر يناير ١٩٨٧ على رصيف المحطة ولكني لا أعرف على الإطلاق في أي مستشفى يرقد أتمنى أن أوفق قبل حلول المساء حيث وقت غلق الباب أمام الزوار وأضطر إلى قضاء الليلة في الردهة الخارجية ذات الرائحة المنتنة بالقرب من المستشفى، وأدفئ يدي داخل القفاز، في اليوم التالي أنظر إلى سيرجي، لا هذا ليس سيرجي العظام البارزة والبشرة الشاحبة يتملكني خوفٌ شديد من لمس يده أتمنى ألا أسبب له ألم فقط يداه أراها رشيقة مثل يدي، شعره الأسود قد انطفأ لمعانه ووجهه منهك وتبدو أنفه مدببة ذات شكل غريب وجوانبها متسعة أكثر من اللازم في البداية لم يلاحظ حتى وجودي أتخيل طويلاً أن هذا ليس سيرجي الذي عرفته ليس هو على الإطلاق بعد ذلك أجلس على مقعد أبيض رث بجواره وأقرأ له ويطلب مني إحضار مدونة أحد الأطباء الشبان ولكني أدعي بعدم القدرة على إيجادها أدخل رأسي في درج الكومدينو الخاص به والممتلئ بخطاباتي وأبحث بينها طويلاً بشكل يبدو غير لائق ولكني أريد مداراة عيوني الممتلئة بالدموع ثم يقطع صفحة من إحدى الكراسات ويدون عليها كلمة واحدة "أوليج" وتحته رقم تليفونه، بعد ذلك سُمح لي بالمبيت في المستشفى مع عجوز يجلس على مقعد بجوار حجرة سيرجي؛ سوف أنجز ذلك، العقلاء يتصرفون بحكمة، تُرى هل من الممكن أن أصبح زوجته، وعندما حضر الطبيب طلب مني مغادرة

المستشفى، سأمكث قليلاً في لينتجراد حيث درجة الحرارة المنخفضة جدًّا والتي قد تصل إلى حد التجمد في بعض الأحيان، حين يتجمد حتى اليأس وتثقل الرموش وتتجمد الأطراف، تتساقط حبات الجليد الناعمة في الطرقات ولم أعد قادرة على السير، أتمنى لو يذوب الجليد ويتحول جميع الناس إلى طيور خضراء.

آذاني تؤلمني من صوت الضوضاء المتكررة والتي تزداد مع كل لحظة، عدت مرة أخرى إلى المستشفى، لن يتركني أحد، تأخذني الممرضة إلى حجرة الطبيب ثم تُعد لي شرابًا أشربه ثم أسعل من شدة لذاعته؛ تنظر لي المرأة وقد فوجئت:

- "ألم تشربي الكحول أبدًا من قبل؟"

تسألني وهي تصب لنا كأسًا أخرى ثم تُعلمني كيف ينبغي على المرء أن يفعل هذا..

- "تتجرعينه على دُفعة واحدة وبسرعة ثم تأخذين نَفَسك وإلا ستشرقين".

بينما نشرب الكحول كانت تمسح لي وجهي وهي تقول:

- "كيف يعشق زوجك تسلق الجبال إلى هذا الحد؟"

صرخت في وجهها إني لست زوجته لو كنت زوجته بالفعل لما تركته هنا في هذه المستشفى الباردة لو كنت زوجته لكنت سافرت به فورًا إلى أمريكا أو سويسرا، أنا حتى لم أنهِ دراستي بعد، لو ماتت جينا سوف أتحمل هذا عنها، فقط تتردد في آذاني أغنية اللؤلؤية الحمراء المحمولة بين الذراعين لكني لا يمكنني القيام بكل هذه الأعمال بدل زوجته، سوف أمكث باقي الليلة هنا أتناول المزيد من شراب الكحول لأن غدًا الأحد وعندما شعرت بدوار في رأسي ذهبت إلى حجرة المرضى

لسيرجي ثم جلست على أحد المقاعد الخشبية البيضاء تتثاقل جفوني وأنا أنظر إلى هذا الجسد المتمدد أمامي وما زال ينبض بالحياة، ثم فجأة أراه ينظر نحوي وهو يبتسم ويقول:

- "هل تعرفين حقًا يا كاترينا ما كنت أستطع الغناء لولا تسلق الجبال".

تلك الابتسامة مازالت على وجهه.

من داخل المستشفى اتصلت بأمي وأخبرتها أنني في لينينجراد ولم يعد معي المزيد من النقود، ولكنها لم تفاجأ بذلك أو تصرخ أو تبكي فقط قالت لي:

- "انتظري على المحطة ووالدك في الطريق إليكِ".

في صباح اليوم التالي رأيت والدي في المحطة بجوار ثلاجة المشروبات الغازية ولم يعد معي سوى القليل جدًا من النقود وعندما أطلب منه أن يشتري لي زجاجة مياه غازية يرفض ويقول لي بأننا سوف نتناول الشاي سويًا داخل القطار وكان قد أحضر لي معه بعض الشرائح من لحم الخنزير والبيض وقطع خبز فالرحلة تستغرق وقتًا طويلاً وضعت يدي أمامي وحاولت النوم قليلاً ولكن لم يغمض جفني وتمنيت أن أحكي وأحكي عن كل ما حدث لي، إني أكره الجبال، وأكره التعلق بها.

منذ أسبوعين أحضرنا كلبًا إلى منزلنا لكي نقوم بتربيته، لن أسافر مرة أخرى إلى الجبال إني أكرهها.. أكرهها للغاية... ولن أراها بعد ذلك إلا في البطاقات البريدية.



أنا وصوفيا لدينا سرٌّ خاص بنا، نجتمع سويًّا في كهف جَويّا حيث نرتب أفكارنا ونُعد خططًا خاصة بنا نرحل من خلاله إلى موريـاني ونجلس مثل الطيور في عشنا الصغير نصيح بصوتٍ عال: "نحن نسُور الجو" ما رأيك في نسر يحمل سنجابًا في بطنه ماذا سيُنجب، العصافير تبني أكواخها لكي تحمي صغارها نحن نريد أن نكون عصافير حقيقية؛ آخذ بيضتين من الثلاجة وأضعهما داخل العُش على الشجرة ولقد عثرنا على هذا الحصن منذ فترة قليلة وقضينا على كل الفئران الموجودة به، هكذا نظام العالم العصافير في السما وظلها على الأرض.



المقطع الأخير من الأغنية يتردد في أذني وعند حلول الظلام ودخول السكون بحيث لم نعد نسمع سوى هشيم نيران المعسكر ذات الصوت المميز ترددت وأردت ترك سيرجي لكنه وقف وجلس بجواري فقلت له دعنا نذهب وعندما عدنا مرةً أخرى شدى فلاد بأغنيته التالية (متسلقي الجبال الشجعان).

- "سوف أذهب إلى الاستراحة فكن جيدًا وتعالى معي فالنجوم تلمع الليلة أكثر من المعتاد..".

ضحك وطَبَع قُبلةً حانيةً على وجنتي وانصرف وهو يضع قيثارته فوق كتفه سوف أنتظر خلف الظلال والرياح، وها أنا أجلس في حجرة شينيا حتى يحين موعد شاي المساء.

صدرت تعليمات صارمة للسيطرة على المعسكر خاصة بعد تلك الصراعات التي حدثت بين بعض الشبان المنتمين إلى تلك الأحزاب المتعصبة، ذهبت مع شينيا إلى غرفته فلديه دفاية تجفف الجوارب بطريقة أسرع، أخذت أنظر في عينيه إنه شخصٌ ضخم ذو عضلات مفتولة وأذرع

قوية وقوام ممشوق يمكنه من الزحف لمسافات طويلة والتعلق بالصخور لساعات وساعات ويبيت وحيدًا في وسط الثلوج بين جبال القوقاز العالية، وهو يأمل دومًا بتسلق قمم أفريست، كما أن شينيا لديه طريقة مميزة في رفع حاجبيه والضحك بطريقة جذابة وهو يضحك دائمًا ولم أره يبكي قط، هذه العيون الجميلة، امتزجت أنفاسه برائحة دافئة ضحكت وحاولت الانصراف لأسمع إلى باقي الأغنية ولكنه نظر لي نظرة لم أفهم مغزاها:

- "أنت سخيف...!!"
- "هذا غير معقول ...!!"
- "أعرف..".
- "فلماذا إذن تفعله؟"
- "لأني أحب هذا، في الجبال مسموح بفعل كل ما تحبينه".
- "أتعلم عندما رأيتك أول مرة ظننت أن عينيك الزرقاء ضيقة جدًا".
- "أحاول التكلم مع الناس بطريقة لطيفة رغم أني أبدو صارمًا دائمًا".
- "اسكت من فضلك لا تتكلم...!!"

كان ناعم الملمس ورأسه متزنة وخفيفة أظافره نظيفة وجميلة ويبدو فمه كما لو كان بدون أسنان أو لسان تفجيني ميخائيلوفيتش هو مرشدي المتميز في تسلق مرتفعات الجبال ولا أحد آخر يستطيع أن يفعل مثله.

شينيا ليس مجرد متسلق يحب الجبال ولكنه موظف في هذا المعسكر مثل باقي العاملين هنا من أطباء وطباخين وغيرهم كان معنا أيضًا جورو أذكى فزيائي وأفضل مهرج بيننا.

- "أنت ما زلت صغيرة، لستِ الشجرة التي يمكنني تناول ثمرتها الناضجة".

اعترضت وتضجرت بشدة بسبب هذا التشبيه السخيف، خفت أن أقع في حبه من الصعب أن يكون لي تأسف لي شينيا ولكني طلبت منه أن يُعد ما يود أن يقوله إذا أراد مقابلتي مرة ثانية، بدا لي بعيونه القاتمة وأصبح شكله مخيفًا.

- "يا إلهي ماذا تريد أن تفعل معي، هل أنت متزوج أو لديك أطفال؟"

أجاب تلقائيًا:

- "لي زوجة وبنتان ولكني لا أذهب لهم إلا قليلاً".

ثم ألقي نظرة على الصور المعلقة على الحائط وقال لي:

- "من أين عرفتِ هذا؟"

- "قلت أن شخص مثلك كيف يمكنه أن يعيش بدون زوجة".

هكذا كذبت وأنا أضع بعض مكعبات السكر في الشاي وأخذت أقلب الشاي ثم وضعت الملعقة على طرف الفنجان كان الشاي يتحرك مثل الدوامة.

- "هل تريدين أن تقولي لي شيئًا"

- "إنك شاب ووسيم ولكنك تبدو بلا خبرة.".

- "وماذا تعرفين عن خبرتي؟"

رفعت الفنجان على شفتي وأخذت منه رشفة كبيرة وقلت:

- "كم أنت وسيم...!!"

وفي تلك اللحظة فُتح الباب ورأيت أوليج وبيده زجاجتان من الخمر فجأة تمنيت أن أكون بعيدة في الخارج عند نيران المعسكر أو حتى راقدة في فراشي، إني فتاة لاتيفية قليلة الخبرة، يفتح أوليج إحدى الزجاجتين فتتصاعد رائحة ما بداخلها حتى تعبق جو الحجرة، إني هنا مع هؤلاء الشباب في رحلة إلى سلاسل الجبال حيث الشعور بالمتعة واللذة الكاملة، هناك في تلك الليلة داخل الخيمة كانت ديانا متمددة بعد أن دلكت جسدها وكان كل جزء فيه يقطر إغراءً.

- "عزيزتي ما زال أمامنا الصيف بأكمله".

- "عفوًا ولكن يجب أن نتوقف عن هذا الضحك فلنتأمل النجوم قليلاً".

- "ماذا ستفعلين بعد الرجوع إلى الوطن؟"

- "سوف أعمل مرةً أخرى في مزرعة الخنازير حتى يمكنني إدخار بعض الأموال للموسم القادم، هل تعلمون ذات مرة عضتني أحد الخنازير...".

كان أوليج يصب الخمر والباب يدق وديانا تندفع إلى الحجرة مقطوعة النفس وشعرها منفوش جرت بسرعة نحو ملابس كاترينا، لقد أصيب فلاد بنوبة سُكر شديدة وقد بدا المشهد مؤثرًا للغاية كان شباك حجرة النوم محطمًا وتتناثر على الأرض قطع الزجاج المكسورة وقد كان فلاد هو المتكلم الوحيد كان يلوح بعنق زجاجة في يده وهو يقول:

- "لا تقتربو مني.. سأقتلكم جميعًا...!!"

ازدحمنا في زاوية الحجرة وحاول بعضنا أن يقنع فلاد أن يكف عن هذا العبث وأنا كنت منكمشة وخائفة للغاية وعندما لاحظني فلاد توهجت عيناه وقال لي:

- "ما هذا يا حبيبتي أتريدين أن أسمعك أغنية أخرى فنحن هنا لكي نغني لكِ وفجأة قفز من مكانه ومسك بالجيتار في يده وضرب به الحائط بشدة فتناثرت الشظايا على الأرض..".

تأوه فلاد قليلاً وسالت الدموع من عينيه وخرج من الحجرة بهدوء، أردت اللحاق به ولكن جينا أمسكت بي:

- "اتركيه سوف يعود بعد قليل".

الليلة الأولى لنا في المعسكر بقيت سرائرنا كما هي لم تستخدم، تساقطت حباتِ المطر على شباك أوليج وعندما انطفأت الشموع وظهرت الروائح الجميلة في حفل عيد الميلاد وعبقت الخمور رائحة الجو بحيث لم يعد أحد يشعر بنفسه حتى جاء الصباح وهو ملتف بعباءته الرمادية من كثرة الضباب الذي يملأ المكان.



عندما كنا صغارًا أرادت صوفيا أن تصبح راقصة فقد كانت تتابع جميع الاستعراضات على شاشة التليفزيون وترقص معهم وتموج بقدمها على الأرض وهي تهز رأسها وتضحك كنا أحيانًا ولكن لم نعرف كيفية المحافظة على اتزاننا مثلها وكنا نصدر أنغامًا موسيقية بأصواتنا ونحن ندور ببطء حتى نفقد اتزاننا ونسقط على الأرض فنندفع نحو الحمام لنستفرغ ما أكلناه، أنا لا أحب الرقص وكنت أحيانًا أربط نفسي بحبل إلى السرير لكي أختبر قوة تحملي ذلك حتى يأتي من يحررني، وكانوا يقولون لي: إن الكلاب فقط هي التي نربطها بسلسلة من رقبتها وأنا أقول لهم: إني أريد أن أتحول إلى كلب حقيقي فكانت تضحك عليّ أمي وصوفيا فأنا مجنونة عندما يصيبني الملل أصبح أشرس من الكلاب الحقيقية.

في الفصل الدراسي الثاني كان علينا أن نكتب بعض المواضيع الإنشائية عن بعض الأشياء التي حدثت لنا في حياتنا ، لقد كنت أشعر بإحساس جميل عندما تظهر شمس العصر ويملأ ضوؤها المكان لقد كنت أفعل كل شيء ممكن حتى أظل أطول وقت ممكن داخل بقعة الضوء.



عندما حل الظلام جاء فلاد وقدم اعتذاره للجميع وعلى الرغم من سوء ما فعله إلا أنا عفونا عنه.

في هذه الليلة كنا سبعة فحسب غادر فاسيكا إلى غرفته، الجبال الثلجية تكون قمتها ملفوفة على شكل سحابة ذهبية.. هيا اقتربوا بعد قليل تتحول الريح إلى ضباب يصيب بالأذى .

بعد فترة قليلة من تناول العشاء شعرت بألم في المعدة ربما يكون برد أو انتفاخ بسيط فأنا أحتاج للراحة وأحاول أن أنام ففي تمام الساعة الرابعة فجرًا استيقظنا وذهبنا نحو تلك الصخرة ومشينا حوالي خمسمائة متر بجوار البحر حتى وصلنا إلى أحد الحقول ثم أخذنا قسطًا قليلاً من الراحة وشربنا الشاي تفحص أوليج المكان بشغف والألم في معدتي قَل ومع كل خطوة نخطوها أزداد قوة وأحاول أن أفكر في زويا إنها بطلتي المفضلة، وها نحن نغوص ونغوص خطوة بخطوة وأكاد أسمع دقات قلبي تك.. تك... بم.. بم...

سالت من فمي بضع قطرات الدماء فأخذت قطعة ثلج ومصصتها قليلاً ثم بصقت فلم أر أي أثر للدم، ولقد ذهبت الريح ولم يعد يهطل المزيد من المطر.

آه.. هذه الهسهسة التي أسمعها في أذني أعرفها جيدًا إنها تذكرني بأصوات القواقع البحرية هل لاحظتم ذلك؛ إن الدكتور دوليتلي لديه القدرة على التفاهم مع الحيوانات وعرفت أصواتهم، هذا صوتٌ قلق مرتعش لحيوان ربما يعيش في الحقول الثلجية!!

تك.. تك.. بم...

يا إلهي.. هذا غير معقول ربما يكون أكله ولكن متى؟

غمزني أوليج بكتفه وقال لي:

- "أتكونين أنت من رتبتي لهذا يا كروميلشن؟ بالتأكيد.. بالتأكيد".

فضحكت وأنا أشاهد عيونه المضيئة.

- "هل تعلم يا أوليج إني كائن قلوق؟ هل تعرف ما هو القلق؟"

- "أين يحدث هذا مع كروميلشن مثلك؟"

- "أحيانًا ينتابني قلق بشكل عصبي أليس هذا مضحكًا؟"

هكذا تساءلت وأنا أضحك ضحكًا جامحًا...!!

- "هنا...!!"

كان أوليج يفتح سوستة جاكتي المحشو بالريش الناعم ووضع يده على صدري.

- "لاااااا... أغلق الجاكت بسرعة هكذا من الممكن أن أصاب ببرد ، أليس كذلك؟"

- "شينيا.. شينيا...!!"

هكذا نهض أوليج من مكانه وصاح:

- "واصلوا أنتم، أنا وكاترينا سوف نعود إلى الفراش".

دق قلبي بشدة وهتفت:

- "يا دكتور حدثنا قليلًا عن القلق!!"

أوليج يقلل من الارتفاع بقدر الإمكان حتى لا نصاب بدوار وشينيا البسني صديرية وضع فيها البندقية الصغيرة وقال لي الدكتور:

- "احذري يا كروميلشن أن تبكي فكل شيء على ما يرام".

- "أنا لا أبكي يا دكتور ولكني أضحك لأني أخيرًا أدركت أن القلق هو أنا وأوليج...!!"

في السير المسرع يضع يفتح أوليج ساقيه ويسحب الحبل خلفه أمتارًا طويلة ببطء، ولكني أعترض لأني لست كلبة؛ وعندما يشتد غضبي فإنه سرعان ما يلتفت نحوي:

- "تعالي .. تعالي يا كتكوتة، ها نحن أسفل"

أوليج جميل يسمح لي بتسلق الجبال يمسح الثلج المنصهر من على وجهي ويحملني على ظهره وهو يضحك ألبسه جاكت الريش الناعم وبعد فترة خلعه لي وقال:

- "الآن حاولي بنفسك أتستطيعين ذلك؟"

أجلس على الأرض وأنا أرجوه فيطمئن قلبي قليلاً، نعم حقًا هذا مفزعٌ بالنسبة لي وهذا طبيعي نصف ساعة راحة لنا بعد سير مائة متر بين تلك الصخور الكبيرة نخلع فيها الخوزة لكي نلطف الجمجمة المتعبة، أوليج يختفي خلف حجر كبير ليحسم بعض شئونه، وأنا أظل جالسة منتظرة في مكاني ولكن نصف كروميلشن ونصف قلوق يريان مثل الكلب وسيده، الكلب الذي يتبع أوامر سيده بطاعة مطلقة، زويا تريد أن تشرف وسوف تذهب إلى المجرى المائي.

أمشي بخطوات مرتعشة وتتوالي عليّ لفحات الرطوبة القارصة، أتتني فكرة التزحلق على الجليد في وسط تلك الحجارة المجمدة، ينتابني صداع أسفل رأسي وقشعريرة باردة في ظهري، ولكن هناك قطعة خصبة لم تتجمد، سأفعل ذلك فحسب فالشيطان ما زال بمفرده، وها أنا ذا أشعر بالدوار يشتد أسفل رأسي أتحسس بأصابعي الدافئة هذا السائل اللزج على شفتي؛ إنه دم.. لم أرتجف على الإطلاق، أعرف هذا يا زويا.. لا يا حبوب.. لا يا كترينا... يا إلهي.. يا إلهي...

لا ينبغي أن يعرف أحد بذلك، إن الوطن الحقيقي ليس الأرض التي فيها المنزل ولكن الوطن هو ذلك المكان الذي يتواجد فيه المرء إلى جانب أسرته بصورة دائمة ومتواصلة ولا يستطيع أحد أن يفصله عنهم، وها أنا أحاول أن آتي على نفسي لكي أنجز المطلوب مني والآن ينبغي عليّ العودة سريعًا إلى مكاني، لذا أضع القلنسوة على أذني وأشد فوقها الخوذة وألبس القفازين وألعق شفتي بطرف لساني، الآن من الممكن أن نواصل السير...

نعم فلنواصل أنا أشعر بتحسن الآن، يجب علينا أن نتوارى خلف الصخور فهذا هبوط منحدر لكن مع كل متر تتضح لنا معالم الطريق عند الخيمة المنصوبة عند الشاطئ المتجمد ندخل حيث يلجأ المتعبون دائمًا إلى الداخل، من الرأس المجروح وحتى أصابع القدم، شاركت زويا بالملعقة في الأكل وضع أوليج لنا الطعام وبدأ في خلع ملابسه خلع الجاكيت والحذاء والجورب القصير وبعد ذلك جذبني من ذراعي نحو الخيمة التالية لكي نخلد قليلاً إلى النوم داخل كيس النوم فلم أعترض على ذلك، بعد فترة أحضر لي شايًا ساخنًا وزجاجة نبيذ.



عندما أحضرت اللبن والعسل لصديق والدي الذي حضر من آسيا الوسطى ليزورننا في البيت استفرغت صوفيا من منظر هذا المزيج ومنذ تلك اللحظة وحتى اليوم وهي تتجنب الدخول للمطبخ أثناء وجودي. عندما لا يكون والداي موجودين في المنزل فإن صوفيا تسحب عصا المكنسة لتنقض بها عليّ فتنهمر دموعي؛ لقد ضربتني على رأسي وأنا هشمت أنفها حتى امتزج مخاطها بدمها.



صاح أوليج وهو يضع لي العسل داخل فمي، نعم.. ممكن؟ هل هناك خطر في ذلك؟ هذه أولى علامات ضعف القلب، آه ما هذا ضعف القلب.. أسمع نبضًا مكتومًا قبل موت الشخص بعشر دقائق، ربما من الأفضل أن تقرأ عن أشياء أخرى فأنا أحمل الكثير من اللوم؛ لا.. ليس عليك لومٌ مطلقًا أنت غير مُدان، هل أنا على ما يرام، وكيف..! لا لستُ على ما يرام. هل أنا على ما يرام.. لستُ على ما يرام..!!

- "يا إلهي هل أنا مذنب؟"

- "ماذا تقول؟ لا شيء ربما تكون مذنبًا قليلاً ، فأنا لا أحصل الآن على مكان للعب لكنك بالفعل مذنب، فإنه ينبغي عليّ أنا دائمًا أتحمل أي جزء من المسؤولية، وأنا كثيرة الثرثرة أيضًا، أعطني قليلاً من العسل...!!"

غير معقول لقد وضع أوليج ملعقة العسل اللزجة على أنفي.

- "أنا..!"

- "نعم أنت بالضبط، لا توجد معزة جبلية خلف ظهرك أتكلم معها، أنا أكلمك أنت.".

- "كيف أكون ضللتك؟ ألا تستحي.. أنا.. أنا.".

- "أوليج، لقد بدأت تقرأ أشياء مرحة لا يُستهان بها، نحن لا نظهر أبدًا، كيف يبدو هذا لي ولك، لهذا لا تسألني عن شيء وأنا لن أسألك عن شيء إطلاقًا".

ولكني من الممكن أن أسقط في كل لحظة وأوليج يرى ذلك في عيني.

- "هنا هذا هنا، هناك هذا هناك. فالاثنان عالمان مختلفان تمامًا وربما نحن لسنا منهما فجميع الآخرين يعرفون من نحن في هذا العالم".

- "وأي عالمٍ ياتُرى هو الحقيقي؟"

- "أبدأ.. وأسأل كل الأسئلة المعقدة.".

- "الفتيات الصغار فضوليون بشكلٍ مفزع".

وأنا أضحك لأن أوليج أخذ كوب العسل من يدي ووضعه في فمي مرةً واحدة.

- "ولكنك تحاولين أن تعرضي كيف تبدو حياتي في الوقت الباقي؟".

- "أنا آكل بملء شدقي أثناء جريان العسل داخل فمي".

- "هناك المزيد في كل يوم".

- " ولكن.. ولكنك لم تحك لي عن أي شيء أنا أفهم الكثير".

- "الفتيات الصغيرات واضحات وماكرات للغاية أيضًا".

- "وأنا لستُ فتاة صغيرة حتى لو أطلقتَ عليّ هذا".

- "فماذا أطلق عليكِ..؟"

- "أي شيء إلا أن تسميني فتاة صغيرة طوال الوقت".

- "آه أنتِ كتكوتتي، دبدوبتي اللطيفة، ولكن توقفي عن تناول المزيد من العسل قد يسبب هذا لكِ مغصًا في معدتك".

- "عندما يصاب المرء بمغص في معدته من العسل فإنه ينبغي عليه أن يأكل الفجل".

- "ولكن ماذا يأكل عندما يصاب بمغص من الدباديب؟"

- "بالطبع يكون في حاجة إلى علاج آخر حتى لا يصير مريضًا"

شفتا أوليج مليئة بالعسل ورقبته تشبه قرص العسل المستدير أعتقد أن لديه معدة لزجة تحتوي على قالب كبير من السكر وسرته قرص عسل صغير وحجره له رحيق الشهد، التصق أوليج بكاترينا وصارا مثل المرض المستوطن، ضحكت كاترينا من هذا التشبيه ولم تعلق عليه بشيء فهي تود من داخلها أن لو كانت مادة أوليج اللزجة المعدية..

أوليج بسكوتة بالبيض لكاترينا..

وكاترينا المفتاح الذهبي[1] لأوليج...

أوليج علبة سكر لكاترينا..

وكاترينا برطمان مربى لأوليج...

أوليج شيكولاتة كاترينا..

وكاترينا حلوى بالموز لأوليج...

أوليج رويال جيلي لكاترينا..

---

(١) نوع من الحلويات السوفيتية.

وكاترينا خمر أوليج المسكر...

بدأت كاترينا الدخول في النوم:

- "احترس، ما هذا الذي تفعله؟"

كانت يد أوليج تحاول التسلل على رقبة كاترينا.

- "آيه.. آيه... لم تعد هناك مشكلة في ذلك!!".

- "نعم وأنا أيضًا أراه حسنًا"

- "هذا ليس سيئًا فقط لا تقومي بفعل شيء وسوف تشفين سريعًا وبشكلٍ كامل".

- "ولكن بالمناسبة، أين جُرحتِ؟"

- "ليس في أي مكان..".

- "أنتِ تكذبين"

- "لا، ولكن جزء صغير للغاية.".

- "أين؟"

- "آوه.. لا... على الظهر قليلاً وليس في أي مكان آخر".

- "أه... يا صغيرتي، يا دبدوبتي.. سوف تودين بحدي معكِ".

- "لا تكن فتى سيئًا ودعنا ننام قليلاً ".

- "رفقًا بنفسكِ يا حبيبتي، اوعديني أنك سوف ترفقين بنفسك دائمًا!!"

- "لا.".

- "فكري في هذا جيدًا.".

- "نام الآن!"

منذ تلك اللحظة وأنا لم أعد أتسلق تلك القمة ثانيةً.

- "أغلق فمك!"، إنه أبي

- "لا، أنتِ وضحتِ هذا لي."، وأيضًا أمي أصبحت في الآونة الأخيرة لديها صيحة مميزة لا يستهان بها.

- "لدي بالفعل مائة مرة.."

- "لا تصح، كاترينا نائمة، إنها مريضة!"

فالهسهسة البسيطة كانت تسري بشدة في الفراغ ومن ناحية أخرى فإن باب حجرة النوم كان مفتوحًا، لقد أشعلت شمعة وانتظرت حتى ينصهر بعض البارفين؛ ولكن بعض الشحم الأبيض الساخن انصهر فوق أصابعي ثم ارتعش اللهب بين يدي وأصبحت خائفة للغاية، والآن تذهب سريعًا، بعض القطرات تنزلق على كفي عبر الأنسجة الرقيقة التي بين أصابعي فالسائل يجري ببطءٍ شديد على بطن كفي، يدي ترتعش، السائل ساخن للغاية، كان السائل يتحرك على سطح بطن كفي ثم يتكور داخلها. كان هذا مؤلمًا للغاية ولكنه حدث في وقت قصير؛ لسعة سريعة ثم يتجمد سائل الشمعة.

والآن سأضعها على صدري، فقط بدون تأوه.. بدون ألم، حقًا هذا الفعل غير حسن يا كاترينا. نقطة كبيرة مباشرةً على حلمة الثدي؛ أي.. هذا مؤلم للغاية ولكنه مضحك أيضًا فلقد تجمد البرافين وانكمشت الحلمة ذات اللون الأحمر الدكن ثم أصبحت مجعدة وداكنة اللون تمامًا وبرزت إلى الخارج وسط طبقة البارفين فأصبحت تشبه فطر عيش الغراب وتورد لون الجلد من حولها، وعندما يسألني أحد لماذا أبكي مرة أخرى فإني سأجيبه بأني قد لسعت في الشمعة، أصبح الجميع شفوقًا عليّ فأمي تطبخ لي ما أشتهي من الأكل وأبي يحملني إلى السرير ويحكي لي القصص الخيالية ويسرح لي شعري؛ فلا أحد يصيح بصوت عالٍ بجواري.

من يلدغ من الحية يخاف من الحبل؛ فكيف تظل تبكي طوال الوقت...

لكن الالتهاب الرئوي الذي أصابني قبل ذلك ليس مثل هذه اللسعة، والبارفين سوف يظل كما هو؛ فهو موجود ولكنه غير كافٍ؛ سوف أعود إلى الجبال فهناك كل شيء واضح فعندما تلتقي صدفة مع شخصٍ ما يرتدي حذاء التسلق تصافحه وبعد برهة تكون قد عرفت كل شيء عنه فهناك لم يرتكب أي شخص أفعالاً سيئة ولا يوجد شخص مكروه من الباقين؛ أو ربما لهذا السبب لأنه قد ينسى أن يقول شيئًا ما أو يريد ألا يقول شيئًا مطلقًا فالوسادة تكون دائمًا مبلولة وتكاد تتمزق وأنا لا يمكنني شم رائحة الأوز المبلل؛ فالأوز يكون على طبيعته وهو جاف فالماء ينتشر فوق الريش حتى تظل أجنحة الطيور جافة ولامعة طوال الوقت؛ فالأوز الميت يسقط في الماء بسبب البارفين الذي فوق طبقة جلده.

يتلون جسدي تحت البرافين باللون الأحمر فأنا أشعر بأني دافئة بعض الشيء ترتفع درجة حرارتي ثم ما تعاود أن تهبط مرة أخرى فأنا أبكي في السرير من السخونة والعرق.

إنها لم تغطس في الماء؛ ولم تلسع باللهب؛ ولم تخترق أمواج الماء؛ ومن غير الممكن أن تكون قد تخللت كتل الحجارة الجليدية؛ وماذا بعد؟

أوليج قال لي ماذا يفعل الحب؟ وكيف يكون ذلك؟ ألم تعرف ذلك عندما نظرت في عينيه؟ فكل صباح لا أرتب السرير أو أحضر الغذاء أو أرتب الملابس داخل الدولاب..!!

لك قبلة مني ولكن بدون أن تلاحظها عما إذا كانت على خدك أو عينك أو شفتاك!! هل نسيت أن تقول لي: صباح الخير؟ اشتريت لك هدية في اللحظة الأخيرة ولكن نسيتها، اسمك يُنطق ولا يكاد أحد يسمع ما أقوله.. العمل استغرق اليوم بأكمله وبدون أن يعتقد أني يمكنني

الاتصال به، أرجع إلى المنزل وأشغل التلفاز بدون أن أسألك كيف ذهبت اليوم؟ ألم تلاحظ شيئًا في فنجان شايك أو ماكينة حلاقتك أو فرشاة شعرك أو حذائك أو في مفكرتك الشخصية..؟؟ لهذا السبب فحسب أود أن أقول لك: إني أحبك... لا أستطيع أن أكمل الحوار قل لي يا أوليج ما هذا.. لا مبالاة؟

أخذت فوطتي المرسوم عليها شكل كلب وحاولت أن أجفف بها جبهتي وصدري وأكتافي وبين سيقاني... الفوطة أصبحت مبتلة تمامًا وحمراء اللون، لقد عادت أيامي (الدورة الشهرية)، في المنزل يكون كل شيء هادئًا، أحلم بأوليج يسيل أسفل مني مع خيط الدم الأحمر.



عندما عدنا إلى قاعدة المعسكر قدّم فلاد إعتذاره لي للمرة السادسة عشر ثم دعاني للمرور عليه في كيميرفو في أي وقت، لكي يريني جميع المعالم والمزارات السياحية ثم يدعوني للذهاب إلى المسرح هناك.

- "كيميرفو؟ هل تقع في نهاية العالم؟ أين بالتحديد في سيبريا؟ أين تعلمت إذن تسلق الجبال؟ وماذا مارستم هناك أصلاً؟"

- "نسافر إلى ألتاي[1]".

هكذا لوح فلاد بيده وهو يدافع عن وطنه.

- "وإذن فالسؤال: ماذا مارستم هناك؟ هل لا يحضر أحد لكم شيئًا عند ذهابكم للمدرسة؟ فحم.. سماد عضوي.. ألوان.. بلاستك.. ماكينات زراعية.. العلوم الكيميائية..!!"

(١) جبال في آسيا الوسطى.

- "وكل هذا في مدينة واحدة؟"

هكذا نطقت وأنا متلعثمة ومندهشة من كبرياء فلاد واعتزازه بنفسه.

- "حسنًا سوف أمر مرة عندما يتاح فرصة مناسبة لذلك".

وأظن أنه سوف يكون من الممتع السفر إلى كيميرفو فذلك بالتأكيد سوف يكون أقل كلفةً من السفر إلى الاتحاد السوفييتي وفي طريقنا سوف نمر على العديد من البلاد مثل كامتشكا وبيكاليس وسيبيريا.

عندما أقلعت الطائرة من المدينة سوف نظرت من النافذة الصغيرة فكلما تبتعد الطائرة عن الأرض يختفي الشجر رويدًا رويدًا مع كل كيلو متر ينطوي من الأرض وتبدأ الألوان من أسفل تتداخل حتى نراها على شكل بقعة من اليابسة، بعد ذلك لاحظت شكل أقدام.. دلكت عيني ومسحت زجاج النافذة وأخذت أحدق جيدًا فيما أرى أنه نهر توم في سيبريا لقد كان لونه بنفسجي فاتح وله شكل الكمثرى الغير ناضجة وله شاطئ مثل لون الفراولة.

في هذا الوقت من العام لا يوجد شجرة واحدة تحمل أوراق خضراء، ففي منتصف يوليو تتحول أوراق الأشجار إلى اللون العسلي، وأحاول أن أسرع خطواتي حتى أساير فلاد في مشيه، أنظر إلى وجوه الناس في الشوارع وأتعجب لماذا أغلب الناس هنا شباب ولكن فلاد يجيبني بأنه يوجد بعض العواجيز أيضًا ولكنهم قلة ولذلك فهم يسمون هذه المدينة مدينة الشباب الدائم.. فلا أحد هنا يعيش طويلاً.

كيف أقطع كل تلك المسافة!!؟

في المساء يزورني فلاد وقد أحضر معه الجيتار لكي يغني لي بعض الأغنيات الجميلة والقديمة، جلس فلاد كثيرًا وأخذ يتناول معي الشاي فنجانًا في إثر آخر ثم فتحت زجاجة الخمر التي أحضرتها معي لكنه كان عصبيًّا ومترددًا وكان لا يزال جالسًا على كرسي بعيدًا عني ولكني رفضت أن أقدم له البارتوت إلا بعد أن يأتي ليجلس بجواري على السرير، بعد قليل أتثاءب أمامه بطريقة ملفتة للنظر وأطلب منه أن يتركني بمفردي حيث أعده بأن أكون أمامه غدًا مبكرًا، وبعد أن ينصرف آخذ دشًا ثم أندس تحت البطانية بعد أن أكون قد التهمت نصف صينية كرنب.

سمعت صوتًا من الخارج فنظرت من بين فتحات الشيش إلى الشارع كانت هناك فتاة ليل تبكي في الشارع كما يحدث في أفلام حرب البلاد العظيمة (الحرب العالمية الثانية في المفهوم السوفييتي) ثم تكرر الصوت مرة أخرى ولكن هذه المرة كان صياحًا مدويًّا قادمًا من مكبرات الصوت:

- "تنبيه إلى سكان مدينة كيميرفو قد انطلق في الجو الغاز رقم ثلاثة أكرر قد انطلق في الجو الغاز رقم ثلاثة ".

ثم سكت الصوت وكادت أنفاس كاترينا أن تتقطع، بعد ذلك أغلقت الشباك وجرت فكاترينا لا تنام... جرت إلى خارج الحجرة حيث ذهبت على نفس الامتداد من خلال السلم الخلفي ثم عبر البهو الرئيسي للفندق الذي كانت تقيم فيه ومن غير تفكير اصطدمت في إحدى الطاولات بصدرها ثم صرخت بعد أن شعرت بأن رئتها قد أصيبت بالغاز رقم ثلاثة، ثم جعلت تتساءل فيمن حولها ماذا يعني هذا وماذا يجب عليّ أن أفعل من فضلكم ساعدوني أنا من لاتفيا ولا أعرف ماذا ينبغي أن أفعل؟ قل لي: هل سنموت كلنا الآن؟ سنموت نعم..؟قل لي كيف يحدث هذا؟

كان هناك أحد الخبراء يجلس على كرسي وهو يدخن السيجار اقتربت منه وسألته نظر إليّ وقال:

- "ماذا تريدين أن تعرفي؟"
- "ما هو الغاز رقم ثلاثة؟"
- "أحد أنواع الغازات السامة".
- "وماذا يفعل؟"
- "لا تحملي همًّا فهو ليس خطر للغاية مثل الغاز رقم واحد؟"

ثم نفخ دخان سيجارته وتفحصني مرة أخرى وأخذ يكمل سيجارته بدون أن يعطيني أدنى اهتمام.

في صباح اليوم التالي كنت قد قررت السفر وذهبت إلى المطار وطبيعي لم أجد تذاكر ولكن كاترينا كانت محظوظة للغاية كان نهر توم في ذلك اليوم ذا ألوان جميلة من ناحية مدينة يوهانزبيرج تشبه ألوان طبق السلطة المتنوعة.



تعيش الخفافيش على شجر البلوط المجوف حيث يمكن للمرء أن تقع عينه عليها؛ فإن هذه الخفافيش لا مأوى لها سوى هذه الأشجار.

وأعتقد أني لم أكن أبكي بسبب هذا فقط ولكني غالبًا ما أبكي عند مشاهدتي لتلك الأمور، وخاصةً عندما يُحضر أبي البط البري إلى المنزل في فصل الخريف فهو يلقي بهم أمام الموقد على الأرض لكي نقوم نحن بدورنا (النساء الثلاث في البيت) بانتزاع الريش فإن أمي أيضًا تبكي من هذا فإن ريش البط يبدو وكأنه براق ولامع ولونه أخضر من

عند الحلق والرأس والذي أحب أن أمسح به يدي وتحت هذا الريش يوجد الجلد والذي يكون سميكًا علي الجسم ورقيقًا عند الرقبة.

ومع نزع ريش الحلق يسقط الجلد كاملًا ويختفي اللمعان ويتلبد كأنه قطعة لحم وبالإضافة لذلك فإن أبي يحب الصيد وإطلاق النار على الطيور البرية والنموس، ولأني أعلم أن النمس كائن ضار فهو يخطف صغار الطيور من أعشاشها فإني لا أبكي عندما يصيد أبي أحد تلك النموس.



- "حبيبتي..".

فتح أوليج باب حجرتي بينما كنت جالسة بمفردي حيث خرج شينيا وديانا لتسلق بعض سلاسل الجبال في اتجاه جورجيا فهم على ما يبدو قد ذهبا إلى أعلى نقطة في المجرى الجليدي حيث يرتدي شينيا العدسات فوق عينيه لكي يتمتع بمشاهدة اللآلئ الحمراء وهي تتأرجح في الرياح الحارة.

- "حبيبتي..".

قام الجميع وبدأ الشباب يجمعون أشياءهم ويحزمون أمتعتهم وقد غاصت أقدامهم في وسط الجليد وجفت الضحكات في حلوقهم وبدوا مثل البلياتشو الحزين وبدأ القلب يخفق بشدة.

انتشر الشباب والفتيات وهم يجمعون هذه الحقائب الممتلئة ويحملونها فوق أكتافهم وفجأة بدت شُهب نارية تتراقص أمام الأعين ثم وقعت بعد أن تحولت إلى حجارة محترقة وظل هذا حديثًا بيننا حتى الصيف المقبل.

وبالفعل في الصباح لم يعد أحد موجودًا، وظللت أنظر إلى الجدران والأبواب وأنا أبكي وأخذت القطط تتجول حول حجرة شينيا منتظرة وجباتها الغذائية بلا جدوى، وأخذت تنمو الحشائش في وسط الملاعب من جديد.

- "حبيبتي..".
- "نعم..". هكذا همست بصوت خفي.
- "سأسافر صباحًا على أول حافلة وأنا مسرورة لذلك".
- "نعم عرفت أنت تقول هذا لي للمرة الرابعة".

- "وأنت..؟"

- "مع طلوع الظهيرة لا أريد تغيير المواصلات في نالتشيك ولهذا فإنه لا يوجد المزيد لنفعله ومن أجل ذلك أكرر لكِ الكلام للمرة الرابعة".

- "نعم.. هل حزمت حقائبك"؟

- "ليس تمامًا، سوف أضع بعض الوجبات في الصباح".

- "دعنا نقوم بنزهة ترفيهية في وسط الغابة".

_ "حسنًا انتظري لحظة؟ سوف أثقب الجوارب..".

لقد أرقدني على شوك الصنوبر الدافئ، وهو خشن وجاف للغاية مثل بيض النمل.

- "بالقرب يقع البحر" ولقد قلت له: "هل تسمع كيف يهدر البحر؟"

- "هذا هو خشب الصنوبر، غابات الصنوبر والرياح".

- "هذا هو نفسه".

- "هل يدوي في البحر صوت أشجار الصنوبر"؟

- "هل تعلم لقد رأيت بحارًا عِدة ولكني لم أسمع قط مثل صوت هسهسة أوراق شجر البتولا أو الإسبن".

أوليج هو الريح، وكاترينا هي البحر...

تسللت أشعة الشمس فوق صفحة الوجه الجميل بينما شوك شجر الصنوبر يملأ ظهري وخلا الساحل من أي شخص وأصبح مليئًا بالعصف والدوي الشديد في غضون دقائق.

بدأت كاترينا ترى في أوليج صبي المدينة الصغير الطائش ذي الدهاء والذي يبدو وكأنه ينظر للبحر لأول مرة بينما يحمل في يديه دب من القماش وتتسع حدقتا عيناه من الغبار.

بعد ذلك رقدت على فراش أوليج وقام هو بتسخين الخبز وإعداد الشاي، ثم بدأ يفترسني بنظراته ورفع جانب الملاءة وقبل أثدائي لأول مرة..

ناولني الشاي وهو يقول: "لا تهدري الوقت في شيء غير مفيد".

ولكني كنت أضيع الوقت وسألني: "لماذا تبكين.. "؟

ولكني لم أجبه بشيء، وبعد أن طال صمتي قلت له:

- "مع بداية كل يوم جديد وفي نهايته أحبك.. أحبك.. أحبك..".



منذ حوالي عام تقريبًا كنت أتعجب من هذا الفراغ، كنت أذهب للمخبز في الشارع وفجأة أرى أمامي هذا الفراغ، أنا أعرف بالفعل أنه لم تكن هذه المنطقة خالية من قبل، ولكني في الواقع لم أستطع أن أتذكر ما كان يوجد بها، ثم تذكرت نعم لقد كانت هنا منذ يومين شجرة زيزفون قديمة ومائلة والآن قد اختفت، وهذا مما يثير دهشة المرء فهذه الشجرة موجودة هنا منذ زمن ولم يجرؤ أحد على قطعها ولقد مررت عليها مئات المرات ولكن لم يخطر ببالي قط أنه من الممكن أن تقطع هذه الشجرة في يومٍ ما والآن أنا أقف أمام قرمة الشجرة المتبقية وأشعر بأن تلك الزيزفونة القديمة تجذبني بقوة نحو الأرض.



أختي العزيزة!

(أمي من فضلك إذا فتحتِ هذا الخطاب لا تقرئيه فإنه خاص بصوفيا)

أتمنى أن تكوني بخير وأن تتصرفي بشجاعة لقد كنتِ دائمًا بطلتي الصغيرة ولقد عرفت أنك تريدين شراء دراجة قد قالت لي أمي هذا وأنا أعرف كم هو صعب أن أطلب منك هذا ولم أرغب في طلبه منكِ ولكنني أستطيع أن أعدك أنني سوف أجمع لكِ المال الكافي لشراء دراجتك؛ ولقد تعاقدت في العام الماضي على عمل ليلي في حديقة نباتات وهو إزالة المطاط من على أشجار الصمغ وأنت تعرفين حقًا شدة التصاق تلك المادة والتي تجعل المرء لا يمكنه انتزاعها بسهولة، العمل ليس صعبًا فقط على المرء أن يذيب صابونة مخصصة للغسيل في ماء ساخن ثم يغسل بها فروع شجر الصمغ وبالطبع لا يعد هذا جيدًا مثل سم حشرات الخنزير إلا أنه أفضل منه بكثير؛ وقرب نهاية العام سوف أحصل على ربح كافٍ.

أنا لا أعرف حقًا إذا ما كان هذا سوف يكفي لشراء الدراجة، وهي بالفعل سوف تكون فكرة شراء دراجة جيدة لأنها عملية خاصةً عندما نخرج للتنزه عليها في الهواء الطلق.

وقد استطعت أن أفشي لكِ السر عندما وعدتيني أنكِ لن تخبري أمي حتى لو تشاجرنا ثانيةً ولكنك عندما تفشين مثل هذا السر فإنك تكونين بذلك خائنة ولن أحكي لكِ أي شيء ثانيةً ولكن هذا يبدو غير معقول لأنه لا أحد غيري سوف يقص عليكِ أي شيء.

لو تعرفين قبل سنة كنتِ ترقدين في المستشفى وأنتِ مصابة باصفرار العينين بينما كنت أنا وسانتا في فينكيلند أنا مع أمهات الخنازير وهي في مزرعة العجول وفي كل يوم جمعة كنا نذهب سويًا إلى الديسكو في مدينة روبينه ولم يكن هذا ممتعًا للغاية فإنا كنا نجلس في

معظم الأوقات على الهامش ولا أعرف حقًا لماذا، جميل الا يدعوني أحد للرقص، بالتأكيد أستطيع أن أفهم سبب هذا؛ فإن الإفرازات التي تفرزها الخنازير ذات رائحة نتنة للغاية وبالرغم من أني أمكث يوميًا تحت الدش لمدة نصف ساعة كاملة إلا أن آثار الرائحة تظل موجودة، ولكني لا أفهم لماذا لا أحد يدعو سانتا للرقص فإن العجول نظيفة وتعبق منها رائحة اللبن والزهور، في السنة القادمة سوف يذهب كل منا للعمل في مزرعة العجول إذا لم أكن مشغولة بشيء أفضل من هذا.

مرة وحيدة قد دُعيت فيها للرقص الثنائي ولكن سانتا أصرت بعدها على أن نعود إلى البيت حيث أني كدت ألا أجد الطريق بمفردي من روبيني إلى فينكيلند ولكن شريكي في الرقصة قد تبعني إلى الشارع ثم قبلني؛ ظننت أنه ربما يكون ثملًا ولكن بالرغم من كونه مدخنًا شرهًا إلا أني استطعمت مذاق شفتيه – لا يمكنني أن أتأكد إذا ما كان هذا الخطاب سوف يقرأه أحد وهو في طريقه إليكِ في البوسطة – حسنًا، لقد قال لي أنه يدعى ماريس أو مارسيس لم أسمعه جيدًا في الضوضاء كما أنني كنت مضطربة للغاية لقد كانت أصوات الضوضاء تدوي بشدة في أذناي ثم نطقت بصوت مرتعش:

- "أنا كاترينا من مدينة ريجا"

ثم عدنا على الفور أنا وسانتا، ليلتها ظللت أحلم بماريس وعلى مدار أسبوع بأكمله لم أحلم بسواه؛ وفي الجمعة التالية لم نذهب إلى الديسكو لأن سانتا ظلت تبكي طوال هذا المساء وقالت لي أنها لا تريد أن تجعل من نفسها أضحوكة وقد كانت توهم نفسها بأنها قبيحة جدًا لأنها لم تدعى للرقص، وحاولت أن أهدئها ولكني عجزت عن هذا ولذلك فإنه كان ينبغي عليّ أن أبقى إلى جوارها داخل البيت وطوال ذلك الوقت وأنا أتذكر ماريس الذي من مدينة روبيني وأشعر به بجواري كما

لو كانت جميع قبلاته حقيقية فمن خلال قبلة واحدة لا يمكن للمرء أن يدرك السعادة؛ أرجوكم لا تغضبوا مني حينما أصف تبادل القبلات بالتحاضن أعتقد أن كلمة "تقبيل" تدوي في الآذان بشكل يبدو مخجلاً نوعًا ما ولكني منذ أن حصلت على قبلتي الأولى لم أعد أصف التقبيل بالمعانقة أو التحاضن وأيضًا لم أعد ألق على الرجال كلمة طراز أو نوع ولكنهم مجرد أصدقاء نعم كلمة صديق لها وقع أفضل من كلمة نوع أو طراز ولذلك ترددها دائمًا كل الفتيات اللآتي يردن أن يتباهين بأصدقائهن الشباب أمام الأخريات.

وقد كنت ما زلت أحلم بماريس حتى بعد عودتنا إلى "ريجا" ثانيةً وقد حاولت الذهاب ثانيةً إلى روبيني لكي أتمكن من الذهاب إلى الديسكو هناك ولكني اكتشفت أن هذا صعب للغاية فالمرء يستغرق اثنتي عشرة ساعة لكي يتمكن من الذهاب إلى هناك والعودة ثانيةً إلى مدينة ريجا.

في اليوم التالي كان ماريس غير موجود ولذلك كان ينبغي عليّ قضاء الليل بطوله في الهواء الطلق بمفردي ولكن في منتصف سبتمبر يكون الجو لطيفًا ولهذا فقد حلمت أني أكتب خطابًا غراميًا إلى بماريس أسرد له فيه كيف أني أشتاق إليه جدًّا وأصف له كل ما يمكننا أن نفعله ونحن سويًا بالطبع لن أرسل مثل هذا الخطاب فالمرء لا يمكنه أن يكتب في خانة المرسل إليه : "إلى ماريس في مدينة روبيني" كما أني أيضًا غير متأكدة أهو ماريس أو مارسيس وقد احتفظت بهذا الخطاب في داخل حقيبتي المدرسية ولكن هل تدرين ماذا حدث بعد ذلك لقد وجدته أمي لا أعرف السبب الذي جعلها تفتش داخل حقيبتي ربما لأني لم أعد أحصل على الدرجات الممتازة كما كان في السابق ولكن على أي حال فقد مسكت بالخطاب وبدأت في حوار طويل معي بسبب هذا وقالت لي أن

الوقت لا يزال مبكرًا في عمري لكي يمكنني أن أشارك رجلاً في سرير واحد على الرغم من أن هذا ينبغي أن يحدث يومًا ما وأنت تدركين هذا كله، ولكن الأمر الأكثر حماقة من ذلك هو أني حتى الآن لم أحلم مرة واحدة بالنوم مع رجل في سرير واحد وما استطعت الاعتراف به لأمي هو أن هذا الخطاب لم أرسله لأي أحد على الإطلاق فألقت به في وجهي وهي تقول أنه ينبغي عليّ الانتهاء من هذا العبث.

ظللت بعد ذلك لمدة أسبوع كامل أقف كل يوم على محطة القطار وأنتظر ربما يظهر ماريس مرة أخرى ولكني اكتشفت أنه لن يأتي إليَّ ريجا مطلقًا لزيارتي لأني لم أرسل أليه أي خطابات ولهذا يا صوفيا أرجو أن تكوني أشد حذرًا عند ذهابك إلى الديسكو لأني أعرف أنك جميلة جدًّا وكل قلب رقيق أخشى أن يتحطم وأراكِ تبكين بسبب هؤلاء الرجال المجردين من الأحاسيس؛ في الحقيقة أريد أن أطلب منكِ أن ترجعي مبكرًا إلى البيت أتركي الخنازير وعودي فأنا أحتاجك وأكاد أجن بدونك؛ لا تقلقي بشأن الدراجة سوف نملك المال الكافي لشراء واحدة جديدة ولكن هذا يتطلب فقط المزيد من الصبر قولي لـ "نينا": ان أبنتك مريضة وإذا عادت إليكِ فإنها ستكون على ما يرام تربي نينا حوالي عشرة خنازير جديدة سنويًّا ولكنها لا تثق في الغرباء.

قد فاض ما بي وأشمأز من ذكر هذا في كل مرة ولكني في النهاية أحبك للغاية.

حبيبتك كاترينا

"اسمه : أوليج"

أمي لا تحدق في عيني ولكني أفهمها وأقدر ظروفها عندما يجب على شخص ما أن ينجز أشياء كثيرة فإنه بالطبع سوف ينسى بعضها.



لم تنجح خطتي فعيناي الجافتان لم تنزلا قطرة دمع واحدة، اكتفى سائق الأتوبيس بهز رأسه وتحريك يده بسرعة وهو يقول:

- "هلم إلى هنا سريعًا"

أُفسح مكانًا للذين لا يستطيعون الصعود؛ حسنًا يمكنني انتظار الأتوبيس التالي في الصباح بالتأكيد منظر النجوم في السماء سوف تطمئن نفسي حينما أظل أتطلع إليها حتى الصباح.

لا يزالِ لدي بالفعل حوالي تسعة أثواب للنوم وسترة محشوة بالريش وزوج من البلوفرات ومجموعة جوارب ملونة من الصوف إنها حقًا تبدو بالية بعض الشيء ولكنها ستكون مفيدة في وقت الحاجة؛ عندما شعرت بالظمأ أخذت أمشي بخطى وئيدة نحو الحمام لا يوجد هناك سوى حوض واحد للغسيل خدشت بأصابعي المغزل الذي يعلوه الصدأ لصنبور المياه وأردت أن أفتحه وأنا مبتعدة عنه بعض الشيء ولكن القطعة المتسخة التي تعلوه لم تتحرك أدرتها بكل قوة بدأت تنطلق بسرعة أمام عيني نُجيمات صغيرة ملونة وأخذت تتناثر هنا وهناك ولكن المغزل لم يستجب مطلقًا؛ من شدة ضعفي انقلبت على جانبي الأيسر ووقعت محدثة صوتًا عاليًا مع اصطدام قدماي بالأسفلت بشكلٍ مؤلم للغاية...

تمهلي يا كاترينا.. تمهلي...

فككت منقذي الأخير من حقيبتي المعلقة فوق ظهري معولي الجميل والذي لم يستخدم تقريبًا كان مكتوب في الناحية الداخلية من المجراف: "اكسر للفتح"؛ أدخلت طرف المقبض في مغزل صنبور المياه وحاولت أن أدير ولكنه لم يتحرك مطلقًا ضغطت عليها بشدة أكثر وبعنف أكثر وأكثر وبصوت يشبه الحشرجة قفز المغزل من حز اللولب وخر الماء نحو الأسفل.

اللعنة.. اللعنة...!!

عدت إلى صالة الانتظار وانزويت في أحد الأركان وحاولت أن أنام، كان بائع النبيذ العجوز قد ذهب إلى البيت منذ مدة وقد خلت محطة الأتوبيس بشكلٍ ملحوظ في الخارج أمام الحائط الزجاجي سقطت من أحد المسافرين المتعجلين بطيخة كبيرة وتكسرت إلى ألف قطعة وتناثر منها اللب الأسود وملأ الأرض من حولها لعن الرجل هذا الموقف ثم جمع القطع الكبيرة من القشر وألقى بها في أقرب حاوية للقمامة؛ شيئًا فشيئًا أخذت الأضواء تخفت والمدينة تتهيأ لهدوء الليل.

- "استيقظي أيتها الفتاة غير مسموح بالنوم هنا نحن سوف نغلق الآن".

انتزعني صوت هذه العجوز المتضجرة من غفوتي الأولى في النوم فقلت لها:

- "ولكن ألا يمكنني من فضلك الانتظار بشكل استثنائي حتى تأتي أول حافلة في الصباح الباكر".

- "لا.. لا.. هكذا التعليمات عما قليل ستأتي المقاومة الشعبية وسوف يسيرون في مظاهرة من هذا الشارع فمن الأفضل أن تذهبي الآن".

خرجت نحو الشارع وأنا أجرجر جسدي المتثاقل وحاولت أن أجد شيئًا يمكنني الجلوس عليه لاحظت وجود منتزه صغير بالقرب مني ملتصق بمحطة الأتوبيس يبدو كأنه منتزه للأطفال أنه صغير جدًا بسطت كيس النوم وتغطيت بالسترة الصوف؛ تبدو السماء اليوم مقحلة ولا يمكنها فعل أي معجزة لي كما أني كنت عطشانة للغاية؛ محطة الأتوبيس الآن خاوية للغاية ومصابيح الشارع تنطفئ الواحدة بعد الأخرى كما أن السحب بدأت هي الأخرى تطفي مصابيح السماء الصغيرة ويقتحم الظلام الشوارع ويذوب في داخله كل شيء فقط كان هناك ثمة بعض المصابيح الكهربائية

الصفراء لا تزال تضيء بخفوت عندما بدأت عيناي تعتاد على الظلام بدأت أرى ما حولي لا يوجد هناك تفاحة مقضومة أو حتى حبة عنب واحدة ثم فجأة خطرت ببالي تلك البطيخة.. حقًا...!

إن قشر البطيخة لا يزال موجودًا هناك وعلى الفور ذهبت نحو حاوية القمامة وحاولت التغلب على هذه الرائحة النتنة التي تنبعث منها لا يا كاترينا إنك لن تتقيئي يا حبيبتي هيا اقفزي إلى الداخل بنشاط لكي تحصلي على بعض قشر البطيخ قبل أن تأتي المقاومة الشعبية الشريرة إنك لم تأكلي منذ حوالي ثلاثة أيام..

أخذت نفسًا عميقًا ثم مددت يدي وأنا أكتم أنفاسي وانحنيت على تلك الحاوية والتقطت منها قطعة كبيرة من قشر البطيخة. لا يزال موجود الكثير من الفاكهة، أزحت أحد أعقاب السجائر بأصابعي المرتعشة من على قشرة البطيخ وجلست أقضمها حتى لم يعد يبقى منها سوى طبقة رقيقة من القشر انتظرت لحظة ثم التهمت تلك القشرة أيضًا وأخذت أبحث عن قطعة أخرى صالحة للأكل ولكني وجدت بقايا كلب ميت نعم وهذا هو مصدر الرائحة النتنة، أخذت تتلوى أمعائي داخل بطني وفجأة سمعت صوت زمجرة غريبة قادمة من مكان ما جريت لكي أختبئ داخل الحاوية المعدنية، يا للهول إنه حقًا كلب صيد ضخم يا إلهي لقد جاء باقي زملاؤه من الكلاب ويبدو هو بمثابة القائد بالنسبة لهم وكان ذا منظر بشع بأذنه المشقوقة وعينه المتقيحة خطى بعض الخطوات للأمام ثم كشر عن أنيابه بشكل رهيب التصقت أكثر بالحاوية وأنا أحاول استعادة جميع القصص التي سمعتها تحكي عن التقاء الفتاة المسافرة بمفردها بالذئاب في طريقها وسط ثلوج الغابات السيبيرية وشعرت كأني ذات الرداء الأحمر سحبت قطعة معدنية وجدتها داخل الحاوية وخرجت بهدوء من الناحية الخلفية وقد قررت الهروب منهم وقبل أن أقع فريسة لهم سأكون قد قضيت على خمسة منهم على الأقل قبل أن أسقط على الأرض وتدفق شلالات الدماء.

أغسطس هو ربيع بلادي؛ تبدأ حرارة الصيف في الانكسار وتبدأ الرياح في وضع لمساتها فوق الشواطئ والكثبان وأشجار الصنوبر والزيزفون؛ تتقافز السناجب بحرية أكثر، أستطيع مواجهة هواجسي أيضًا أفضل من ذي قبل، ولكن عندما أعود سوف تكون أمي في انتظاري وحينها لن أستطيع النظر مجددًا في عينيها.



الأبناء المفقودون الذين يعودون إلى بيوت آبائهم (قد ملأوا الأرض بآثارهم) التي لا تتلاقى إلا بالنسبة لبعض المواليد الذين يتشاركون نفس تاريخ الميلاد وتكون حياتهم مرتبطة مثل التوأمين حيث يسيران سويا لفترة قصيرة ثم يبقون كأخ وأخت بسبب صورة في المرآة الخلفية للشارع.

إيدموند فريدفالد (رواية: حية في الخليج)

ماذا يحدث معك؟

أمي تحقق معي بشكل يومي تقريبًا.

لا شيء.

منذ أنْ بلغتي سن المراهقة عليكِ أن تتعلمي كيف تكونين شابة ناضجة.

ولكن.. ماما...

ألا تزالين تشعرين بالضعف بسبب هذا الالتهاب الرئوي؟ الألم يعاودك منذ ستة أشهر والطبيبة قالت...

كل شيء على ما يرام!

ولكن...

سأكتب لكِ خطابًا؛ ألا ترين هذا سهلاً للغاية.

وبشأن هذا الـ"سيرجي" أو "جيانا"؟

ماما...

من أحببتِ يا تُرى؟

ماما.. لا أحد منهما، وأنت لم تعودي صديقتي ولن أحكي لكِ شيئًا ثانيةً.

تتنهد أمي كالعادة وهي تمسح بيديها جبهتي ثم تترك الحجرة.

أظل أكتب وأكتب على أمل أن يأخذ هذا بيدي ذات يوم، أتمنى أن تُجمع خواطري في كتاب لعله يحظى بالنشر، في هذه المرة تكررت كتابتي لأسماء "أوليج" و "جيانا" و "سيرجي" وقصة ارتباطي بهم وتسلق الجبال الذي أظل مشغولة بالتفكير فيه كل يوم بعد عودتي من المدرسة، أجري نحو صندوق البريد في كل صباح لأرى إذا ما كانت هناك أي خطابات لي منهم؛ تغلف خطابات "سيرجي" رائحة الجليد وأتلمس أشواك الصنوبر من خطابات "جيانا" أقتل الوقت بإعادة قراءة خطاباتهم فتأخذني إلى موسكو عبر "كييف" و"ليننجراد"، موسكو... حيث يسكن أوليج لم أجازف بالكتابة له من قبل ولكني غاضبة منه لأنه لا يدرك ما أنا فيه، لا تستطيع أمي أن تتعايش مع كلاب المدينة ذات الأنف الأفطس والرائحة المنتنة ولكني لست كلبًا أفطس الأنف وليست رائحتي منتنة أنا وردة صغيرة جميلة؛ تطلق صوفيا ضحكة ساخرة هكذا تبدأ دائمًا المعركة بيننا نتبادل العض وجذب الشعر ثم بعد مرور عشر دقائق تجلس كلٌ في زاوية الحجرة بوجهٍ مخدوش وملابس ممزقة وأحيانًا أنفًا دامية.

- بقرة حمقاء!
- قذرة!
- عاهرة! كان هذا أجمل سراويلي!
- وحقًا تمزق!
- سأرتدي سراويلك!
- حسنًا! أود رؤيتك وأنت تفعلين هذا!

- سأفعل!
- حاولي إذن فعل هذا!
- سترين!
- بسرعة إذن أيتها الصغيرة!
- معتوهة!
- ماذا.. مَن.. مِن فضلك!
- أنتِ مختلة ومريضة نفسيًا!
- أنا؟! كرري هذا مرة أخرى على مسامعي!
- مجنونة.. مجنونة.. مجنونة..!
- سوف أريك الجنون على حقيقته!

التقط فنجان الشاي من على المنضدة وأوجهه نحو وجه صوفيا مباشرةً، تتفاداه بمهارة شديدة ويحطم الفنجان زجاج النافذة ليملأ الحجرة بثلج يسير نجري سويًا لكي نجمع بقايا اللوح الزجاجي المكسور ثم نسد فتحة النافذة بالمخدة، يجب أن يعود الزجاج كما كان قبل عودة أبي إلى البيت.

تستطيعين فعلها!

تقولها صوفيا لي وهي تجلس بجانبي وتراقبني وأنا أقوم بجمع قطع الزجاج ولصقها مرة أخرى.

لدي الفرصة للسفر مرة أخرى فقد أعلنوا في المدرسة أن أفضل المنشدين في الكورال سوف يحصلون على فرصة السفر إلى بيلا روسيا (روسيا البيضاء).

هذا جميل بالفعل وسوف يناسبكِ كثيرًا.

أنت أيضًا تستطيعين مقابلة جينا.

تتمتم صوفيا:

أسافر.. غير ممكن أبدًا.

لماذا غير ممكن، تستطيعين المجيء معي.

أنا متأخرة في الترتيب ورئيس الكورال كان قاسيًا معي للغاية فقد استبعدني من الإنشاد الفردي.

نعم استبعدك ولكنك تستطيعين الغناء بشكل جيد للغاية!

لم أعد أستطيع الغناء كما كان في السابق ولا يمكنني أيضًا متابعة الأداء الجماعي للكورال..

ولكن فرصة السفر تستحق المحاولة! أنا خائفةٌ جدًّا!

لماذا يا كعكتي الصغيرة!

تعالي ساعديني في تركيب زجاج النافذة، بعد شهرين فقط سوف تسافر الفرقة وسوف يستريحون أثناء سفرهم في هذا المكان بين "كييف" و"مِنسك"، وسوف يقول أبي: إن إيفيجا غير مسموح لها باللعب فوق الجبال العالية فهي مريضة ومن المتوقع أن تموت في خلال سنتين.

أشعة الشمس مضرة للغاية هناك، ولكن لا يستطيع أحد أن يقول لها هذا، أنا سعيدة لأن أبي طبيب ولكنه للأسف طبيب بيطري، اشترى والد إيفيجا لها مزلاجتين وهو يصطحبها للسفر إلى الجبال معه يظن أن الهواء النقي سوف يكون له القدرة على مساعدة ابنته في الشفاء، في هذا الصيف لن أسافر إلى الجبل، أبي يقول أنه يجب أن أستريح قليلا ولم يعطني بالطبع أية نقود.

سوف تبقين في البيت ولن تسافري إلى أي مكان.

هكذا قال لي محذرًا على وجبة الفطور، صحت وأنا أقشر بيضتي؛

- ماذا..؟
- إني جاد تمامًا في هذا.
- أنا لا أحتاج لأي راحة!
- انتهينا من ذلك.
- لكن.. بابا...
- أنت ما زلتِ صغيرة.
- إذن سوف أذهب للعمل
- لن أتركك تفعلين هذا مرة أخرى، سوف تظلين في البيت؛ فقط عليك أنت تهتمي بالحديقة ويمكنك التمشية على الشاطئ.
- أبي.. من فضلك؛ أرجوك...
- هذه المرة لن أتنازل عن موقفي.
- يا إلهي..

آمل أن يكون لي في يومٍ من الأيام صديق مقرب أستطيع أن أحكي له كل شيء بالرغم من أني لم أعد غاضبة من سانتا فقد تصالحنا بعد أن اشترطت عليّ عدم ذكر أوليج أمامها مرة أخرى، في هذا الصيف أسمع أبي وأمي يتكلمان عن الطلاق لأول مرة...

- "فكر في الأطفال!"

صارت هذه الكلمة تُسمع عندنا في البيت باستمرار، أعبر سور الحديقة لكي أتناول الشاي مع إيرينا؛ ترتب أمامها أوراق اللعب كما تفعل العرافات ولكن هل يمكنها التنبؤ بالفعل مثلهن؛ الأمر غير ذي أهمية بالنسبة لي.

تتناول صوفيا أحد قمصان أبي ثم تقص له الأكمام؛ ينبغي عليّ الإنتباه إلى أنها صارت تشرد بخاطرها بعيدًا هذه الأيام، تؤثر الأفلام التي تعرض بعد الحادية عشرة مساءً يشكل مفزع على نفسية الأطفال.

أتجول ببطء في الفناء الخارجي للمنزل؛ أرى ابن رودي يهتف نحوي "أهلا كاترينا" وهو يرفع رأسه من تحت سيارته ويمسك مفتاح الصامولة بيده ألوح له بيدي وأدخل، في المساء أرقد بجوار صوفيا وهذا يشعرني براحة واطمئنان كبيرين.

- قوي... ناعم... قوي... ناعم... قوي...

- كاترينا، توقفي عن هذا العبث..!

انتزعني صوت صوفيا الحانق من النوم؛ تململت وأنا أعتدل وبصوتٍ غاضب ومتثائب خاطبتها:

- ماذا حدث لتوقظيني هكذا؟

- لأنه كان يجب أن أوقفك عن هذا.

- لن أذهب معكِ لأي رحلة.

- لماذا، اشرحي لي ماذا حدث؟

- انظري ها أنت تبدأين الشجار من جديد.

تلتف صوفيا بالأغطية وتتقوس على نفسها وهي توجه مؤخرتها نحوي:

- عظيم جدًّا؛ هل يمكن إذن أن تخبريني ما الذي صدر مني لكل هذا، ما الذي أيقظتيني من أجل أن توقفيني عنه؟

- لا شيء عودي للنوم ثانيةً.

- لن أنام أو أدعك تنامين قبل أن تخبريني؛ لن أسمح لكِ أن توقظيني من حلم جميل وتتركيني بدون أن أفهم أي شيء.

- ماذا حلم جميل أنت مدمنة جنس، كنت ترددين "قوي.. ناعم". بصوتٍ مسموع.

أجيبها وأنا ألهث من شدة الضحك:

- ليس الأمر كما تظنين.

- حقًّا.. ومن هو هذه المرة؛ أوليج ثانيةً؟

- صوفيا توقفي، الأمر لا يتعلق أبدًا بالجنس؛ كنت ببساطة أحلم بأني ألفت ديوان شعر وكنت أفكر في شكل غلافه عندما أصدره هل أجعله من ورق مقوى مثل المجلدات الضخمة أم أجعل غلافه ناعمًا؛ هذا هو كل شيء.

تسترخي صوفيا إلى الوراء قليلًا بعد أن تتفهم وجهة نظري.

بعد أن يشملنا الصمت أقترب قليلا من صوفيا لتقترب هي أيضًا مني بدورها ثم أنكمش إلى جوارها في السرير، تنتفض صوفيا فجأة وهي تسألني:

- منذ متى وأنت تكتبين الشعر؟

- ليس كثيرًا مجرد خواطر، أتشربين معي كوبًا من الشاي؟

نذهب سويا إلى المطبخ وفي أثناء إعداد الشاي تنطفأ لمبة المطبخ فتحضر صوفيا كرسيًّا ثم تصعد فوقه لتركب اللمبة ولكن تهتز يدها فتقع اللمبة وتتكسر على أرضية المطبخ.

- أحضري لي حذاءً حتى يمكنني المشي فوق بقايا الزجاج المكسور وائتي لي بمكنسة لأرفع بها الزجاج المكسور!

- حسنًا!

أحضرت المكنسة وطلبت منا أن تظل فوق الكرسي حتى أزيح شظايا الزجاج المكسور، كانت كتفاي ترتعشان من البرد.

- كاترينا؛ ماذا أصابك في الآونة الأخيرة؟

- هل تريدين الشاي بالنعناع أم بدونه؟

- ها أنت تضطربين مرةً أخرى؛ أخبريني ماذا بكِ؟

- وبعد أن طال صمتي وضعت صوفيا كوبها الفارغ فوق المنضدة ثم عادت إلى حجرة نومنا؛ كنت أتابعها بعيني وأنا أرغب بشدة في إجابتها غير أني لم أجد ما أقوله لها؛ كانت ملاءة السرير لا تزال دافئةً بعض الشيء التصقت بها وأنا أهمس:

- لا أدري...

- أنا أيضًا لا أدري؛ يبدو أن الجميع قد فقد عقله.

- صوفيا إني خائفة للغاية.

- وأنا أيضًا..

- أعطيني قبلة..!!

شفتا صوفيا ناعمتان للغاية؛ تفوحان برائحة النعناع؛ وينبعث منهما عبقٌ ساحر يشجع على النوم.



العام الأخير لي في مرحلة الدراسة الثانوية، في هذا العام اعتقدت بأن كل شيء في البيت على ما يرام، فقد خف الشجار بين والديّ، وانشغلت في أغلب أيامي إما بحصص الجيتار أو دروس الكيمياء، وعزمت على الالتحاق بأكاديمية الزراعة بعد الحصول على شهادة الثانوية، كان مدرس الموسيقى يلمح بإعجابه بي في حصص الجيتار عبر رسائل الغزل التي كان يكتبها لي على مناديل من الحرير؛ ماذا يظن، كيف لي أن أهتم بالمذاكرة والحب معًا، كما أن تبادلي الرسائل مع سيرجي يستغرق أغلب وقتي وكنت أشعر بغيرة من مدرس الموسيقى حين أحضر له إحدى ألحان سيرجي ولم يكن بإمكانه سوى الإقرار بجودة الألحان.

شيء في غاية البشاعة عندما يود أحدهم أن يهبك عمره عن طيب خاطر بينما تبخل عليه بمجرد الابتسامة...



همست لي صوفيا:

- انظري ماذا وجدت..!!

ثم ناولتني إحدى مذكرات أمي الملونة الممتلئة بالكتابة وبداخلها ورقة مطوية بحرصٍ شديد ليس بها سوى جملة واحدة "سامحيني؛ فإني راحل..".

ألقت عليها صوفيا نظرة سريعة ثم ذهبت إلى الكومودينو وفتحت درجه العلوي لتخرج منه بعض الأقراص البنية والبيضاء؛ قالت صوفيا:

الأدوية الموجودة هنا لا خوف منها فجميعها للسعال كما أنها تبدو متشابهة تمامًا.

أسرعي إذن قبل أن تأتي ماما..

أفرغت صوفيا حبوب السعال ووضعت مكانها الحبوب المنومة ثم أخذنا النقود التي في الدرج وأسرعنا إلى محطة القطار، تكلفة التذكرة تسعة روبلات؛ في غضون خمسين دقيقة كان القطار يصل إلى لينتجراد.



- صباح الخير!
- صباح الخير!
- هل يمكنني محادثة أوليج؟
- أوليج؛ مكالمة لك (كأني سكرتيرتك الخاصة)
- نعم؛ من معي؟
- مرحبًا أوليج، أنا كاترينا.
- كاترينا...؟
- نعم، ...كروميلشن.
- آه.. كروميلشن، جميل أن أسمع صوتك، كيف حالك؟
- بخير، وأنت؟
- بخير، إني أستعد للموسم المقبل.
- ماذا عن أسرتك؟
- كل شيء على ما يرام، ماذا عن أسرتك أنت؟
- أيضًا كل شيء على ما يرام.
- إذن كل شيء بخير؟

- بالتأكيد ، أود أن أسألك عن شيء ما؟

- تفضلي ولكن بإيجاز فنحن نستعد للخروج حالا.

- أنا متعبة بدونك.

- ماذا؟ ماذا قلت؟ معذرة لم أسمعك جيدًا ، سلك التليفون يقطع باستمرار.

- أنا أحبك..!

- ارفعي صوتك يا كروميلشن فأنا لا أفهمك جيدًا..

- لقد مات سيرجي..!!

- عفوًا من مات؟

- سيرجي، سيرجي قد مات، حالتي سيئة جدًّا ولا بد أن أراك.

- معذرة لا يمكنني فهم أي شيء، دعينا نتكلم عن ذلك مرة أخرى، عليّ الذهاب الآن، وداعًا...

- لكن...

تييت.. تييت.. تيييييت....



أبي؛ هل تعتقد أنه يمكنني الحصول على منحة صغيرة؟ فلقد اجتزت امتحان القبول.

- لا زلتي تصرين إذن على إفلاسي؛ كم تحتاجين؟

- القليل من النقود؛ حيث أني أود السفر إلى كامتشا وعند العودة سأقوم برحلة صغيرة إلى كيميروفو... فقط القليل من النقود.

- ماااااذا؟!

- لقد قلت بنفسك أنه يمكنني الذهاب إلى رحلة رخيصة.

- هل تظنين أني أطبع النقود؟

- أمي تعمل أيضًا وتكسب النقود!!

- أنت وقحة!

- إذن فسوف أرحل عن المنزل ما دامتم لا تريدون مساعدتي.

- كاترينا...!!

- كاترينا؛ كاترينا..! دائما يجب أن أسمع الكلام؛ لا ترحلي؛ افعلي هذا؛ لا تفعلي هذا؛ كم هذا ممل، ليتكم تعرفون كيف ينبغي أن يتصرف الوالدان مع أبنائهما بشكلٍ سوي؛ تختلفان مع بعضكما ثم يصير العبء علينا.

- يبدو لي أنكِ تمرين بمرحلة المراهقة؛ كل هذا سينتهي عندما تصبحين في الثامنة عشرة من عمرك.

- أف؛ لا تقولي لي هذا مرةً أخرى؛ إن مرحلة النضوج ستكون بالنسبة لي أفضل من هذا بكثير، ولكن ماذا الآن؟

- حسنًا.. حسنًا.. سوف تحصلين بالتأكيد على شيء ما فإنه ينبغي عليّ أن أهنئك باجتيازك لامتحان القبول.

- أنت عظيم يا أبتي!



ذات مرة جمعتنا أمي أنا وصوفيا في غرفتها وطلبت منا الجلوس بجوارها على الأريكة وبعد فترة من الصمت والانتظار شعرت كأني أعرف ما تود قوله وتمنيت أن ينتهي هذا سريعًا حتى يمكنني الذهاب إلى النوم.

- نحن... عليّ أن أخبركم بشيء يا أطفالي.

تنحنحت صوفيا بصوتٍ رقيق:

- نعم يا ماما؟

ثنيت ركبتي نحو صدري وأحطها بيدي ثم أخذت أتأرجح للأمام والخلف.

- نحن... أود القول بأن.. أباكم لم يعد يسكن معنا.

تهللت فرحة في داخلي؛ أخيرًا يمكنني أن أنعم بالهدوء والمذاكرة ليلا بدون ضوضاء، تتصنع صوفيا الدهشة "لا". عندئذٍ تبدأ أمي في البكاء؛ وتبدو الكلمات كأنها تخرج من أنفها:

- لا تبكوا فهو لن ينساكم؛ كما أنكم يمكنكم زيارته.

هذا جنون فهو لا يمثل في أهميته بالنسبة لي أكثر من قطعة روث جافة؛ لن أبكي عليه أبدًا؛ ربما يكون هذا غير مقبول لدى البعض، طمأنتها صوفيا قائلة:

- لا عليك؛ كل شيء سيكون على ما يرام.

أحاطتها أمي بذراعيها؛ وأنا ما زلت مستمرة بالتأرجح.

- لقد أحبكما كثيرًا، لكن هذا الأمر كثيرًا ما يحدث بين الكبار؛ يتطور الأمر بينهم لدرجه تجعلهم لا يقدرون على البقاء سويًّا.

لم أفهم باقي كلامها من كثرة النحيب، ملت نحوها قليلا، وصرخت صوفيا:

- أبي خنزير!

احتضنتها أمي وهي تقول لها:

- لا تقولي مثل هذا الكلام مرة أخرى، لقد أحبكما كثيرًا.

تابعت أنا صمتي، لم يعد أبي بيننا؛ كم يبدو هذا مرعبًا.

- ربما لا تفهماني الآن ولكن بعد سنوات قليلة سوف تتفهمون هذا.

- يا أمي منذ سنوات وأنا لا أفهمكم؛ كم يخجلني افتراقكم الآن؛ ومع ذلك لا يمكنني قول هذا الآن، دعينا ننتهي من هذا بسرعة أرجوك، مسحت صوفيا شعر أمي "كل شيء سيكون على ما يرام يا أمي" إني أحسد صوفيا على هذا؛ دعكت عيني حتى تبدو كأنها محمرة والدموع تسيل منها؛ اشتد نحيب أمي وكان لزامًا عليّ أن أشاركهما البكاء في هذه المرة.

إذا كانت تُعرف بساق واحدة حتى الآن؛ فلماذا تسير على زوجٍ منهما، يفترض بها أن تكون شريرة، تعيش في الغابات، بجسدٍ عارٍ، تصطاد الناس وتقيدهم حتى موعد الأكل، لتذبحهم وتشرب من دمائهم.

الموسوعة اللاتيفية (استوكهولم: ١٩٥٣-١٩٥٥، جـ ٣)

هنا أوضح أنا "كاترينا مورا" أني سوف أبدأ أعيش حياتي بطريقة جديدة، وهذا التغيير يتلخص في النقاط التالية:

حرق كل كتبي.

ترك كلية الطب البيطري والالتحاق بأكاديمية الزراعة.

البحث عن معنى جديد للحياة.

أرى أن تأليف الكتب أمر شاذ، فكل الكتب يجب حرقها؛ هذا هو الأسلوب المنطقي الوحيد في التعامل مع الكتب، فهي لا تأتي إلا بالشر.

بدأت القراءة وأنا في الرابعة من عمري، في البداية تخيلت أني أحب الكتب، آنذاك كانت صوفيا في السادسة من عمرها؛ كانت دائما تنام وهي محتضنة دُبَّها البني الصغير، تؤدي هذه الدُّمى الصغيرة المصنوعة من الألياف والقماش إلى الجمود لأنها تعودنا دائما أن نحب شخصًا أصم يغلق عينيه بمجرد أن نضعه على ظهره وخاصةً إذا كان هذا الشخص يناديني بكلمة "ماما"، بالإضافة لذلك كان لي أنا وصوفيا حصان هزاز، كان ضخمًا ومحشوًّا بنشارة الخشب من داخله ومكسو بجلد أسود من الخارج يشبه الحصان الحقيقي إلى حد كبير، "بيلتسيس" هكذا أسميناه كانت له عينان زجاجيتان وسيقان رشيقة وذيل من الشعر الحقيقي وقضبان انزلاج يرتكز عليهما مدهونان باللون الأخضر، في داخل فمه الواسع كانت تبدو

أسنان خشبية مدهونة بالطلاء الأبيض، رغم سلوك بيلتسيس المثالي وبخلاف أننا كنا نميزه عن جميع ألعابنا باسمه الذي منحناه إياه ولكنه أيضًا لم يكن صديقنا المفضل لأنه أولا لا يمكننا إصطحابه معنا إلى السرير وإخفاؤه تحت الغطاء وثانيًا لأنه عند جلوسنا عليه بدون بنطلون طويل فإنه كان يؤدي إلى جرح أفخاذنا، عندما قمت بقص عرفه بدى منظره سيئًا للغاية.

عند عودة أبي من عمله كانت أمي تسأله دائمًا "ماذا أحضرت؟" فيجيبها "كتابًا" كان يعتبر هذا إنجازًا عظيما أو شيئًا يجب الفخر به، على المرء شراء الكتب الجديدة فقط ليقذف بها إلى المدفأة بدل الحطب، حتى "لينين" لم يكن فارسي الأول، فقط "دون كيخوته[1]" كان بطلي، ولا يزال إلى اليوم، الكتب تسلب مني براءتي وتبعدني عن أمسي، لذا يجب حرق كل الكتب، لن أترك منها سوى دون كيخوته فهو مفيد جدًا وبه الكثير من القيم النافعة، كان يصف في بدايته ما فعلته القراءة به لقد جُن وفقد عقله كان يضع خوزته المعدنية ويجري تحت شمس إسبانيا الحارة لكي يحارب طواحين الهواء، أعتقد أني لو أحرقت كل الكتب في الدنيا لأصبح الناس أكثر سعادة، أظن كذلك أن أمي لم تكن ستحب الذهاب إلى محطة السكة الحديد الرئيسية لو لم تقرأ رواية "آنا كارنينا"، لم أعرف من أيهما ينبغي عليّ أن أغضب أكثر من أمي أو من الكتاب الذي قرأته.



(١) دون كيخوته : بطل رواية تحمل اسمه للمؤلف الأسباني سرفانتس صدر الجزء الأول منها في ١٦٠٥ والثاني في ١٦١٥ والدون كيخوته رجل نحيف قد ناهز الخمسين من عمره لكن الظروف المحيطه به صنعت منه بطلا شعبيًا. [المترجم]

أعتقد أنه سوف يأتي اليوم الذي أكتشف فيه المكان، حيث تزاح جميع الستائر عن أسرار هذا العالم، لا أدري إن كان هذا سوف يحدث لي؛ ورغم ذلك لا يبدو لي أنه أمر ممكن الحدوث، لا يوجد مفتاح لهذا العالم إلا في داخله...



- كاترينا.. كاترينا.. أيمكنك سماعي؟ كاترينا؟
- ماذا؟
- كاترينا، هل تسمعيني؟
- نعم، أسمعك.
- أنت بخير، هل أغمي عليك ثانيةً.
- أشعر بدوار شديد في رأسي.
- هذا طبيعي؛ يجب أن تكوني بخير الآن.
- اطمئني كل شيء سيكون على ما يرام، سأعطيك حقنة الآن، وأكتب لكِ على بعض الأدوية.
- شكرًا.. شكرًا جزيلا أيها الطبيب.
- سأضع الروشتة هنا على المنضدة بجوار المصباح، هل تسمعيني يا كاترينا، بجوار المصباح مباشرةً.
- ماذا؟
- هل ما زلتِ تعي بمن حولك؟
- لا..

- عليكِ أن تبقي جالسة لدقيقة واحدة، نامي جيدًا وسأرسل لك الممرضة حالاً.

- شكرًا أيها الطبيب، سأتصل بك خلال أسبوع.

- بالتأكيد؛ بالتأكيد؛ حافظي على صحتك، حتى ذلك الحين إلى اللقاء.

- آه.. نعم، إلى اللقاء حتى ذلك الحين.

أخرج الطبيب أختي من الحجرة، صوفيا لا ترتعش أبدًا، لكنها تبكي وتنساب دموعها الغزيرة على جفونها الملتهبة في صمت، وعدتني أن تتصل بأبي لأني لا أستطيع أنا غير قادرة على فعل شيء مطلقًا؛ وصوفيا هي من تقوم بكل شيء، ستذهب الآن.



ذهبت صوفيا إلى المطبخ وقطعت السجق والخيار إلى قطع صغيرة، ثم خلطتهم بزيت الخردل وأحضرت قطعة رنجة مملحة، وطهت طبقًا من البيض والبطاطس، ثم شوت قطعة لحم خنزير في الفرن واتفقنا على ألا نضع جزرًا فإن طعمه كان يبدو مقززا مع تلك الأشياء المالحة، جلست على الكرسي بجوار الشباك أقص شواشي البصل.

- يمكنك أن تغسلي الفطر على الأقل.

هكذا قالت لي صوفيا، ثم انتزعت نفسها من العمل وصرخت موبخة:

- وإلا فسوف يفسد..!!

قمت وأنا منهكة القوى، الشيء الوحيد الذي أجيد عمله هو الجلوس على مقعد صغير بجوار صوفيا وتشبيك يدي وأضع جبهتي بين ركبتي. دخلت المطبخ ووضعت برطمان الفطر داخل الحوض، حاولت فتح الصنبور ولكن كانت صوفيا قد أغلقته بإحكام شديد فهو يقطر منه الماء عندما لا يغلق بإحكام، ليس هناك ما هو أشد رعبًا من صوت اصطدام قطرات الماء بالحوض وأنت مطلق العنان لأفكارك "تك.. تك.. تك.". تأخذ قوتها في الازدياد، وخطوة بخطوة تقربك من الأوهام، إيقاع نبضات القلب، اصطدام الماء الدفئ بالمعدن، ليس هناك ما هو أبهج من أن تستيقظ من النوم والصنبور مغلق بإحكام، فتنتشل نفسك من الصداع، وتذهب إلى النافذة لتأخذ قليلا من الهواء الطازج الذي تبدأ به يومك الجديد، وتشاهد كيف تتحرك فروع شجرة الكمثرى، أو كيف تتعامل الرياح بقسوة شديدة مع ورقة ذابلة من شجرة التفاح، لكن لا يحدث هذا كله عندما تسمع الـ "تك.. تك.. تك."، تظل باقيًا في مكانك، فاقد القدرة على تحريك أي شيء، تتجاهل توتر أعصابك بمحاولة عدم الاكتراث لشيء، وفي النهاية يبقى الظلام، فلا يوجد من الأساس أي شباك يطل على أشجار التفاح والكمثرى...

اسمي كاترينا.. الحياة بلا معنى... كل شيء بلا معنى بالمرة، لحظات السعادة القليلة لا تكفي لتبرر فائدة وجودي، البهجة شيئ مضحك فهي تدل على شدة خوف الإنسان من نفسه، يخاف من الهيستيريا، أكره نفسي، لأني غير قادرة على تغير أي شيء، أعاني بشدة لعلمي أن شيئًا لن يتغير.

اسمي كاترينا.. الحياة بلا معنى... لم تعد لي طاقة على احتمال الألم...

لم تغلق أمي صنبور الماء جيدًا، ظلت لعدة ساعات جالسة على منضدة المطبخ، تستند على يديها، وتنصت إلى صوت قطرات الماء، ربما آلمتها يداها، لم تعد لديها القدرة على إحكام غلقها، قلت لأبي مرارًا أن الجلب تحتاج إلى تغيير، ودائمًا يعدني بتغييرها، ثم ينسى، لكني لم ألمسه قط، بإمكان المرء التفريق بين الأمور الهامة والأكثر أهمية.

لم أرغب أبدًا في لمس جسد أمي منذ طفولتي، وعندما طلبت منها تدليك ظهرها قليلا كان عمري في قرابة السادسة، غثيت نفسي قليلا، وارتبكت جدًا، نمش أصفر اللون على بشرة ذابلة ورائحتها غريبة، عندئذٍ فقط ربطت بين بشرة أمي وقشدة اللبن، ثلاثة أشياء كانت هي أفظع كوابيس طفولتي: شاي الشُمرة؛ وقشدة اللبن؛ والحرب الذرية، في ذلك الوقت بدا لي لمس أمي أشد رعبًا من شرب شاي الشمرة بالقشدة في البدروم المجاور لمسرح وايلس وأنا أتابع الانفجارات النووية التي تشبه عيش الغراب من فتحة التهوية؛ ولم أتخيل أبدًا أن يأتي والدي وينقذني من الإشعاعات الذرية، فوق رفوف الكتب توجد لدينا مجموعة ضخمة من الصور بعنوان هيروشيما ونجازاكي؛ قد أبيدت هناك مجموعات كبيرة من الأطفال والأمهات والآباء والكلاب والحمير، تُظهر الصور وجوهًا مكفهرة من الألم.



قالت لي صوفيا وهي مترددة:

- قرري بنفسك ما الذي ستحتفظين به وما الذي تستطيعين أن تستغني عنه؛ ففي النهاية سوف تعودين إلى هنا

- ما الذي تقصدينه بهذا؟

- سأغيب لفترة

- ماذا؟

- سأعود بعد غدٍ

- سوف تذهبين إلى أبي؟

- لا؛ سوف أذهب لأبعد من ذلك، إلى بولندا، ثم أحاول من هناك التوجه إلى ألمانيا، لا يمكنني البقاء هنا.

- صوفيا...

- لا تحاولي منعي.

- لكن كل شيء قد تغير؛ كل شيء، وها أنت ترين ذلك بنفسك، كل شيء من حولنا تطور وأصبحنا أخيرًا أحرارًا، أصبح في إمكاننا العيش مثل هناك و...

ردت صوفيا بلهجة مخيبة لأملي:

- نعم... أنت لا تفكرين إلا في نفسك.

في الحقيقة لست مهتمة بأحد قدر اهتمامي بصوفيا؛ إن أوليج لم يعد موجودًا بعد؛ كما أنه لن يكون موجودًا في المستقبل أيضًا، كان لدي انطباع بأنه سيغيب طويلا.

- أتعلمين يا صوفيا، لا يوجد في الحقيقة شخص يدعى أندرياس!!

- ما أسخف هذا!!..

- بالفعل يا صوفيا؛ لقد اختلقت كل هذا.

- ماذا تعني؟

- يعني أنه لا يوجد شخص اسمه أندرياس؛ أو ربما قد يكون موجودًا في مكانٍ ما ولكن ليس لي أي علاقة به، هل تعلمين؛ لقد قال لي أوليج ذات مرة أن أفضل علاج لي هو التخيل!!

- لحظة؛ فلمن كنتِ تكتبين كل تلك الخطابات إذن

- كنت أكتبها بالفعل لتلك الشخصية الخيالية التي تدعى أندرياس، لكنه لم يتلق مني أيَّ خطاب.

تأوهت صوفيا؛ وقالت:

- لم أتمكن أبدًا من معرفة أيهما أسوأ؛ أن يكذب المرء مباشرةً؛ أو يكتم الحقيقة، سواء هذا أو ذاك في النهاية سوف يتضح كل شيء، من الصعب على أحدهم إيجاد طريقة لكي يدخل بها إلى قلبك أنت تريدين دائمًا.أفضل الأشياء فقط، تحتمين من العادة الشهرية؛ الأظافر المتسخة؛ رائحة الإبطين؛ الإحساس المرهف الذي يطارد المرء دائمًا في سن المراهقة، احبس دبابيرك في علب مربى غير شفافة؛ اعتني برائحة المكان؛ اجمعي أعقاب السجائر؛ ضعي قرص مخدر للكلب كي يهدأ طوال الليل ولا يظل مستيقظًا، كل هذا كي لا تتألم من هي مثلك، المسافة تزداد.. تتباعد الأنفاس حتى تصبح أمتارًا؛ وتتحول الأمتار إلى ساعاتٍ تفصلنا؛ وتصبح الساعات منفي يبعدنا أكثر، في النهاية لا تجدين ذلك الظهر الدافئ الذي يمكنك الالتصاق به كي تحسي بمواساته لك.

تقف صوفيا فاتحة فمها، بإمكاني رؤية كل أسنانها البيضاء الغير محشوة التي ورثت جمالها عن أبيها، مادارا أيضًا جمية؛ ذات جسد قوي ممشوق؛ عيون ماكرة؛ وضحكة رنانة، بسبب تلك الضحكة المشهورة كانت هي أكثر الفتيات المحبوبات في الصف الأول لكلية الطب البيطري، وبالفعل فقد انجذب إليها أندرياس كالمهووس منذ اليوم الأول؛ لكنها لم تظهر أي شيء نحوه، كان الجميع يتوددون إليها، في محاضرة

الجراحة الأولى لعملية خصاء حصان غشي على أندرياس عندما رأى خصيتي الحصان بين يدي الدكتور المحاضر وهو يشرح عليهما، مادارا لا تحب الرجال الذين يغشى عليهم؛ ولكني لحظتها وقعت أسيرة أندرياس حينما خر فاقدًا الوعي؛ في تلك اللحظة بالتحديد اكتشفت أن عينيه تشبه عيني أوليج.



ليس من حق المقيمين بـ "ريجا" السكن في المدينة الجامعية ولأن المسافة كانت طويلة من جلجافا إلى ريجا؛ وانتظار القطار يوميًّا أمر متعب للغاية؛ فقد اخترت أن أسكن مع زميلتين لي، ولكن سرعان ما حملتا زميلاتي وتركتا الدراسة عائدتين إلى منزلهما، ولكني بعدهما حصلت على فرصة للسكن مع مادارا؛ كان يأتي أندرياس لزيارتنا بشكل يومي تقريبًا، حاملا معه الكعك والفطائر وبعد أن نعد الشاي يجلس ليسمعنا من عزفه على الجيتار، وكلما تأخر الليل كلما كانت قصائده التي يغنيها أشد حزنًا، فألتف حينها في سريري وأغمض عيني لكي أنصت بشكل أفضل إلى صوت أندرياس المرتعش؛ بينما كانت مادارا تغرق في الضحك عليه كالعادة، كنت أسمعه يقول: "أحبك" وهو يغلق الباب خلفه عند خروجه.



تقدم أفراد دفعتنا لأداء الخدمة العسكرية، في المساء وقبل رحيل أندرياس كنا قد أعددنا له في حجرتنا حفلة وداع صغيرة؛ قمنا بتنظيف الحجرة وإحضار الكعك والنبيذ والسندوتشات، في المساء بعد أن تناولنا العشاء واحتسينا النبيذ حاول أندرياس العزف على الجيتار بشكلٍ عشوائي، لكن أصابعه لم تطاوعه، كانت تقفز نصف تكة أكثر أو

أقل من المطلوب في الوتر الواحد؛ وكانت تخرج منه تنهيدات قوية مرتعشة طوال الليل، عند منتصف الليل تقريبًا لاحظت شحوبًا ولمعانًا في عينيه؛ ورغم أنه حاول أن يُظهر هذا على أنه من أثر التثاؤب لكني كنت أشعر به، أخرجت زجاجتي بيرة كنت أحتفظ بهما في دولابي وأخذت أواسيه، كان يلتقط أنفاسه وينظر نحوي، كم أنا جميلة؛ كم أنا عطوفة..



سوء الفهم هو أفضل شيء، فإن جوهر اللغة قد بني بسبب الاختلاف فيها، بل إن اللغة نفسها قد نشأت من الحوارات والنقاشات الجدلية عندما دُونت، كما أنها تتحول إلى عمل إبداعي عن طريق الاختلافات التي تمر بها.

إينو: شاعر فنلندي

(بعدما قرأ هذا كان قد اشتد به الملل من كل الكتب؛ ليس الأمر مجازًا، وكان هذا ما يحدث معه في نهاية كل مرة يقرأ فيها) .

صيحة أبي انتزعتني من النوم، كان يقول شيئًا مثل كم أن قلبه حزين لأنه لا يوجد أحد يطيعه ويحضر له الخبز ويُطعم الكلب؛ كان يجب عليه أن يظل ملازمًا للسرير وكنت آتي إليه لكي أساعد.

- ليس الآن؛ نعم ليس الآن.

قلتها وأنا أتمتم بصوتٍ منخفض في سماعة التليفون رغم علمي بأنه لا يسمعني.

- لاتفيا؛ برميل من البارود والنار توجد هنا، ينبغي عليَّ البقاء في ريجا ولكن ليس الآن...

صوت أبي ينم عن شدة مرضه؛ قمت بتنظيف المنزل بشكلٍ سطحي وقررت أن ألقي بالعديد من الأشياء النافعة باستهتار شديد، ها أنا أعود هذه المرة من زيارتي لأبي بحقيبة سفر مملوءة بمسامير وعلب شحم ومفكات وعبوات فارغة وعليّ أن ألقي بكل هذا في الخارج، ما زال أبي يصر على ممارسة عمله كطبيب بيطري لأولئك الفلاحين المجاورين له، لقد كان من أفضل أطباء ريجا البيطريين فيما سبق، كان يأتي إليه الناس لكي يستشيرونه من كافة أنحاء المدينة تقريبًا، يدعي دائمًا أنه

يجب إحضار خزينًا كافيًا للبيت يكفي لفترة طويلة ولا يقتنع أنه بعد استهلاك أقل من ثلث المخزون يكون قد فسد باقيه بشكلٍ أو بآخر، دائمًا ما أطلب منه أن أحضر له من تقوم بتدبير أمور المنزل ولكنه يرفض دائمًا.



بعد يومين أكون متوجهة إلى المدينة مرة أخرى، أتابع طريق العودة من خلال نافذة الأتوبيس يتدافع المسافرون؛ أسمع بكاءً قادما من جهة امرأة عجوز في داخل الأتوبيس، بعد وصولي أبدأ بمداعبة ليوناردو ويتقافز هو أيضًا من حولي، لا أشعر بأهمية الوقت؛ تتساوى أمامي الشجاعة والخوف؛ تتعدم أحاسيسي؛ أشعر بأني كتلة متبلورة عديمة الشكل، تمثل الحرية للأردي عدم وضع القيود حول عنقه ولكن بالنسبة لي فإنها تعني شيئًا آخر تمامًا، لا أحتاج إلى وسيلة مواصلات للوصول إلى باريس يكفي فقط أن تكون لدي الرغبة في التواجد هناك أغلق عيني وأبدأ باستنشاق الهواء الفرنسي، انتقل أبي إلى الريف لكي يتخلص من كلاب المدينة ولكنه اقتنى الكلاب هناك أيضًا؛ إن الكلاب هي التي تحب الارتباط به، عندما أتمشى على حافة النهر أشعر بمخاوف عديدة تلاحقني بدايةً من انزلاق أقدامي ثم الخوف من السباحة لأني سأخاف من التعب والتوقف ومن ثمّ يجرفني التيار ثم يشدني للغرق في أعماق النهر، أجري مسرعة بعد أن أستعرض شريط المخاوف أمام عيني، الشيء الذي يسعدني كثيرًا الآن هو أني أعيش الآن بدون أطفال؛ لا أستطيع أن أتصور ماذا يمكنني أن أفعل معهم لو أنجبتهم الآن طالما أني بمفردي لا يزعجني أحد أستطيع أن أجري بسرعة أقفز وأضرب الهواء بيدي أزحف على بطني أختفي بين زراعات البطاطس، لا يستطيع المرء أن ينجب طفلاً صغيرًا ثم يكون لديه القدرة

على المرح بعدها ، هؤلاء الذين يتكلمون دائمًا باسم الوطن ويدعون دائمًا العمل من أجله لكنهم مع ذلك لم يشيروا مطلقًا عن استعدادهم للموت فداءً لأوطانهم أنا أيضًا ليس لدي أي استعداد لذلك ولا هؤلاء الحمقى الآخرون بالرغم من أني دائمًا ما أرى الموت باعتباره أحد أشكال تحول الكائن الحي، دائما ما تستهويني تلك الحلول المعقدة، كما أفهم الحب باعتبار الرباط الذي يجعلنا نجلس محملقين في شاشة التلفاز تتشنج أيدينا وهي متشابكة نشعر بلحظات الاضطراب سويًا يدفعنا تيار جارف ولكن سرعان ما نعاود التمسك ببعض من جديد كما لو أننا لا ندرك أننا نغرق ثم تتلاقى نظراتنا المندهشة من جديد.



كثيرًا ما كنت أفتقد حجر أمي لين ودافئ وآمن؛ كنت أجعله كملاذ أخير لي؛ أغمض عيني وأترك يدها لتعتني بي؛ يدٌ ذكية تعرف الطريق جيدًا لأنها متاعب المرء؛ هكذا يكون الجسد كوسيلة للاعتناء بالجسد.

دائمًا ما كان الرجال الذين يظهرون في أحلامي لا يحملون وجوه؛ كان الوجه الغير مرغوب فيها فقط هو الذي يظهر لي، كان دائمًا هذا الأمير الفارس القادم من روسيا البيضاء على صهبة جواده ممسكًا بلجامه المزركش ممزقٌ قميصه حال رجوعه توًا من أرض المعركة؛ يبدأ بتدفئة يداي، ثم ينحني ليقبل قدمي؛ بعدها أشعر بأنفاسه تلهب عنقي وصدري أشعر أني أكاد أن أطير فوق السحاب، دائمًا ما أتخيل فِعل الحب مع تلك المسوخ التي تتحرك بدون وجهٍ معروف تتشابه جميعًا في كونها أكل ميتة وغير موجودة في الحقيقة.

◆◆◆

أعرف أن هذا كثير ولكن يجب عليّ أن أخبركم به؛ دائمًا ما أفشل في الاعتراف بهذا حتى أمام نفسي؛ أنا فتاة عاديةٌ تمامًا؛ من كثرة أن كل شيء لدي بخير وعلى أكمل وجه لم يعد كذلك..؛ ربما لهذا السبب أو لغيره أفعل كل ما يحلو لي وكل الأمور عندي سواء، أحاول أن أوهم نفسي بأن هذا ليس انفصام، لو كانت أمي إلى جانبي الآن لكن لاطفتها بشدة بالغة؛ فقط لو أنها ما زالت تعيش معنا، أنا آسفة لذلك لعلي لا أكون قد أرقت مضجعها، عندما أذهب لزيارة قبرها يتسخ شاهده الجرانيتي بالمخاط والدموع، ترافقنا تلك الكلاب الحبيسة بعويلها ونحيبها الجنائزي المثير؛ حتى لاردي كان يركض طوال الوقت في محاولة منه لاستدرار عطفي وشفقتي عليه؛ لا يمكنه تقبل فكرة أن صاحبته المحببة إليه قد أنهكها التعب ولم تعد قادرة على اللعب معه كما كان الأمر منذ سنواتٍ مضت؛ لقد أصبحنا جميعًا عجائز، أول أمس وجدت بجوار شجرة الورد علبة مدفونة تحتوي على العديد من الروبلات كانت أغلب العملات لم يعد لها قيمة الآن فقررت أن أحرقها وأنثر رمادها فوق حوض الورد الذي وجدتها تحته ولن أخبر أبي بهذا.



جارتي المحبوبة إيرنا والتي قضت معظم حياتها في السفر والترحال؛ أجدني الآن مضطرة لأن أبين لها الآن الطرق والاتجاهات بعدما كبرت في السن ثم تقول لي بين الحين والآخر: "انظري؛ ما الذي تعلمتيه في المدرسة" اعتادت إيرنا أن تتمتم دائمًا بأشياء غير مفهومة؛ ولكنك لا تملك إلا الاستمتاع بصوتها الناعم الذي يخرج منها ضعيفًا من شدة ما يحوي بداخله من الحب؛ أحاول تقليد طريقتها في الكلام بينما كانت هي تُرَبِّت على كتفي كنت في أشد الحاجة إلى ملاطفتها؛ أجلس معها لأصغي إلى

حكاياتها في كل مساء؛ كانت عندما تتحدث تراودني أفكارٌ عديدة أنه يوجد خلف الباب موجات شديدة من العواصف وجليدٌ يتساقط بكثرة، جاءتني الشجاعة أخيرًا للبحث عن رقم أوليج والاتصال به؛ كانت "سامحني" هي كل ما استطعت القيام به؛ قبلت سماعة الهاتف وبدون أن أشرح له عن معاناتي بدونه أو الاحتياج إلى الدفء بجواره والاختباء بداخله فقط كلمة قصيرة واحدة استطعت النطق بها "سامحني" ثم تيت.. تيت... تيييييييت....



كنت أستلقي على حافة النهر؛ ترفرف فوقي العديد من الفراشات؛ يغمرني ضوء أبيض دافئ يجذبني نحوه مع باقي الفراشات؛ أشعر بسعادة تفوق الاحتمال؛ تترقرق دمعة كريستالية في عيوني، أنظر للضفة الأخرى من النهر وأشعر أنها حافة سريري، يشتد في عيني بريق سطح الماء المموج عند الضفتين بينما يبدو هادئًا في الوسط حيث تحتشد الكثير من الأسماك النهرية من نوع بارش (Barsch) والتي لا يستطيع اصطيادها إلا أمهر الصيادين لخشونة جلدها وكثرة أشواكها التي تدمي اليد، أجلس لساعاتٍ طويلة أراقب طريقتهم في الصيد ورغم تعاطفي مع الأسماك لكني لا أجرؤ على السباحة فوق الأماكن التي تتجمع فيها في النهر لأنها قد وخزتني بأشواكها مرتين من قبل، لو قُدرَ لي أن أكتب كتابًا عن نفسي لوجب عليَّ أن أذكر فيه كم أني حمقاء وغير ذكية بشكلٍ كافٍ؛ لأني لا أستطيع الحفاظ على علاقة طويلة مع أي رجل؛ منذ أن تركني أوليج وأنا لا يمكنني الأكل أو النوم كما كان في السابق، الوحيد الذي أستطيع التكلم معه بحرية هو شاهد قبر أمي، أشعر كأني ألقي أحجارًا في النهر ولكن لا شيء يتحرك كصلاة خالية من التسبيح،

أذكر كيف انتظرت بالأمس عودة أمي لتكلمني مرة أخرى وعندما أدركت استحالة ذلك تشنجت وظللت جالسة في الحديقة أتمنى الموت ولكن قبل ذلك أتمنى ظهور أوليج مرةً أخرى لكي يدرك أي أمرأة عظيمة قد فقدها وأي خطأ بشع قد ارتكبه ولكن بعد أن أكون قد مت بالفعل وتخرج روحي الشفافة ترافق أوليج لبقية حياته، تُرى ماذا يفعل الرجال الأذكياء طوال الوقت لو لم يوجد هذا المخلوق اللطيف الساذج الذي يسمى "المرأة" في خلفية الأحداث داخل الحياة؟ لم أعد أنتظر ذلك الفارس الأمير القادم من بيلا روس[1] فوق حصانه.



في المساء تبدأ حياة جديدة، أبحث بعيونٍ لامعة عمن يقتل وحدتي، ولكن حتى الآن لم أجد المرشح المناسب لهذا المنصب؛ لم يستطع معظم الآخرين تحمل إخلاصي، يمكنني تفهم ذلك أيضًا، أنا ببساطة لست واحدة من هؤلاء الطاهرات اللواتي تحيط هالات النور حول رءوسهن، دائمًا لدى كاترينا الكثير من الأسئلة التي بلا نهاية؛ سلة صغيرة ممتلئة بالأفكار الطازجة، فيما تفكرين؟ أتنشغلين بشيء؟ هل لديك مشاكل؟ ألا تريدين التحدث بأي شيء عن هذا؟ أتعلمين.. لديّ انطباعًا بأنك لست طبيعية، ها أنت تنشغلين الآن بسماع الأم تريزا؛ ربما ينبغي عليك أن تنشغلي دائمًا بأفضل الأشياء، دائمًا ما ينشب المرء بأظافره ليكتشف العالم من حوله لكنه يدرك بعدما يكبر أنّ يده صغيرةٌ جدًّا على هذا..



(١) بيلا روس : (روسيا البيضاء) دولة تقع في الجزء الشرقي من أوروبا يحدها من الشرق روسيا ومن الغرب بولندا ومن الشمال ليتوانيا ولاتفيا ومن الجنوب أوكرانيا، انضمت للاتحاد السوفييتي عام ١٩٢٢ وانفصلت عنه لدى انهياره. [المترجم]

تشعر دائمًا أن حياتها بلا جدوى، كما في قصص الأطفال تتنافس دُمى اللعب فوق الأرفف، تريد كلٌّ أن تكون الأفضل لتحصل على بيت لها، في البداية تُباع كل الأميرات ثم تليها تلك الدمى المبطنة بالقطن والإسفنج وتبقى دائمًا الدمية الأسوأ حظًا في النهاية لكي يأتي رجلٌ فضي الشعر يشتريها ثم يهديها لطفلةٍ يتيمة تقف وحيدة في مساء عيد الميلاد تتطلع بحزن إلى واجهة العرض المضيئة، ليس من الضروري أن نقول أن الدمية الأخيرة تصير هي الأكثر سعادة بين كل الدُّمى؛ لأن الأطفال اليتامى دائمًا ما يكونون هم أفضل الرفقاء للدُّمى أثناء اللعب معها، الأطفال الأثرياء قد نسوا من كثرة لعبهم أن يترفقوا بها ولا يعرفون كيف يحافظون عليها، لهذا ينبغي على المرء أن يقرأ كثيرًا لكن للأسف لا يوجد ما يكفي من الكتب الحزينة في العالم؛ "كل فرد يحيا الحياة كما تيسر له أن يحياها".



أدرت رقم أوليج، يظل كلٌّ منا صامتًا لفترة ثم ينطق أخيرًا قائلاً لي:

سامحيني...

ثم.. تيت تيت تيت تيييييت.....

حسنًا، جيد.. كلا ليس حسنًا على الإطلاق لا يمكنه وضع النهاية هكذا بكل بساطة، أريد أن أصرخ، نحن لم نتحدث بشيء على الإطلاق..! لم أعد أحتمل كل هذا الصمت! حتى الراديو كان يبتلع صمتنا، وينزوي كلب الجيران ولا أسمع صوته، أنظر إلى نفسي؛ أنا أتسلى ثانيةً مع أوليج، أشعل سيجارة، يجب عليّ أن أخمد هذه النار المقرفة أسفل حجابي الحاجز أحاول فقط تهدئتها بالتدخين لكي تمر الأيام بسرعة.

منذ أن أنجبت إيرنا ابنها الأول وهي لم تعد إلى جمع القواقع ثانيةً، وأول أمس كانت قد رزقت بمولودها الثاني، كنت أطلق عليها في السابق شينكن إيرنا (القوقعة إيرنا)، يا كلبي العزيز أطلب منك النباح ولو لمرةٍ واحدة تمزق بها سكوني، إني خائفة، أنظر نحو النافذة، لا أحتاج الكثير، فقط نبحة واحدة، أبدو مثل القنفذ الذي يخرج منه الدخان، لم أعد أرى أي معنى في الكفاح من أجل البقاء، لو يستطيع أحدهم أن يعطيني سببًا واحدًا فقط لهذا، هيستيريا الهدوء تكاد تقتلني، أفتح التلفاز؛ يباغتني ضوؤه المبهر لعيني، تصطك أسناني، أتابع الدراما، يعود الشتات إلى رأسي ثانيةً عند رؤيتي لشاب يقبل فتاة قبلة حارة، هل يكون هذا هو الحب؛ لا إنه فقط إعلان للآيس كريم.



- أنت تفكرين دائمًا بمعاناتك السابقة، كيف تستطيعين العيش مع كل تلك الذكريات المؤلمة؟

هكذا سألني أوليج ذات مرة عندما كان لديه الوقت للتحدث.

- ربما يكون هذا بسبب حبي للصيد والذكريات!
- وهل تجيدين الصيد؟
- انس هذا الأمر.
- أنت جريمتي!!
- لا تقل لي هذا، مثل هذا الكلام يخيفني..



لا يمكنني أن أضع يدي فوق أي جزء من جسدي وآمره بالتوقف عن الحب، إن ذكرياتي المؤلمة تكاد تصلبني، تُمطرني برزاز حارق في العين، آه أعاني ثانيةً من الإنفصام، لم أعد الآن في حاجة للحرية التي كنت قد تمنيتها من قبل، إنها مدهشة، ولكنها مفزعة ومخيفة للغاية في الوقت نفسه، لقد بدأت أمل من الخوف، قواعد اللعبة في الحياة تقضي بأنه يمكنني حل مشاكلي لكن ماذا لو كان العائق الوحيد أمامي هو أني لا أعرف شيئًا من تلك القواعد، يا تُرى أين دُونت تلك القواعد، أين يمكنني أن أجدها في هذا التيه من الجبال الثلجية الموحشة التي تبدو بلا نهاية، هذا الخوف الذي يُنسي المرء حتى كيف يتنفس، يجعله يتقلص بداخله ويشد حول وسطه حزامًا من أعباء الهم المقنطة، تتراءى بوابات النار مفتوحة من بعيد، ألا تريدين يا حبيبتي الوصول إلى هناك؟



قررت اليوم الذهاب لطبيب العائلة لكي يعرضني على أحد الأطباء أو المحللين النفسيين أو حتى يكتب لي على مهدئ لنوبات الفزع التي تجتاحني، قد رحلت صوفيا إلى سويسرا مع أحد الفنانين، زرتها في الصيف الماضي هناك؛ لديهم بيت ضخم من طابقين تمتلئ كل جدرانه باللوحات الفنية، تحمل معظمها بورتريهات لصوفيا، يبدو أن زوجها ليس في حاجة لأحد سواها حوله، تناولت معهم النبيذ وضحكنا كثيرًا، ولكني تركتهم ورجعت بدون أن نتفق على تبادل زيارة أخرى.



أرفع يدي وأتلمس التليفون، "أوليج"، في الصباح أثناء ذهابي للعمل أوقفتني إيرنا:

- انظري..!! كم هو طفل جميل!

- نعم أتمنى أن يكون لي مثله أيضًا..

أتركها وأنا أفكر هل يا تُرى أوليج الذي قابلته في المعسكر شخص مختلف عن ذلك الذي نسجت حوله خيالي ودونته في مذكراتي، لا يمكنني تخيل نهاية لتلك القصة، أريد فقط أن أعرف لماذا غير أوليج رقم تليفونه، لماذا قرر وضع النهاية بمفرده دون أن يقول لي شيئًا، لهذا ينبغي أن أمتنع عن معاودة الاتصال به ثانيةً، الأمر الذي لا أستطيع أن أفهمه حتى الآن هو لماذا ظننت من قبل أن أوليج سوف يطعنني في قلبي عندما يقول لي ذات يوم أنه لا ينبغي عليّ أن أعاود الاتصال به أبدًا.



قرأت ذات مرة أن الإنسان يحب عمره كما لو أنه يقبض به على يديه ولكن إذا ما أخبره أحد أن أجله قد انتهى ولم يتبق لديه سوى يومين فإنه يفرد أصابعه ويود لو يحيط بها العالم لكنه يكون قد تأخر وتحطمت قبضته بالفعل، منذ أن بدأت في كتابة يومياتي وأنا أستطيع أن أكتشف بنفسي الأمس واليوم والغد، عشت أوهامًا كثيرة في سنواتي الأخيرة تلك لا يمكن أن تحدث في الواقع، آه يا كاترينا قد دخلتِ في تلك اللعبة التي لا تدركين شيئًا عن قواعدها، إنها لا تتيح للإنسان أن يصير خالقًا لكنه فقط يسلم نفسه لله حتى لو لم يؤمن بوجوده، ذلك هو جوهر النفس البشرية، وعندما تنتهي تلك اللعبة الشيطانية تتناسب أجزاء المشكلة بدقة وبشكلٍ غير متوقع أيضًا تسقط الحياة في تصوراتنا ثم ينقذنا الإله.

لماذا يغتر الإنسان دائمًا بنفسه، إنه لم يخلق شيئًا في هذا الكون فكيف يصير خالقًا، الأمر نفسه بالنسبة للحرية ربما لم يُتح للبعض فرصة الاقتراب والمشاهدة من هذا الأمر الذي وُلد منه العالم أساس كل شيء ربما يقترب البعض قليلاً ويرفع آخرون جزءًا من زاوية الستار ليسترقوا نظرة إلى الداخل ولكنهم يحصلون في نظرتهم الثانية على صفعةٍ قوية، وبعد ذلك تلاحقك الذكريات الغامضة الطويلة إلى الفردوس المفقود، فلتحاولي يا كاترينا مرة ثانية وثالثة، طوال حياتك المليئة بالمثابرة والاجتهاد لكن كل هذا لا ينفعك، فلتقتربي خطوة واحدة من الخالق العظيم، لا أحد يمكنه تجاهل هذا يا كاترينا، لكن ربما.



دائمًا ما تتساءل العيون اللامعة:

- هل لديكِ ذكرٌ عني في يومياتك يا أمي؟

- بالطبع، لا يمكن أن يكون لدي ما هو أهم منكِ، فأنت كل شيء، قولي للضيوف أن يتفضلوا إلى الداخل.

- تعالي يا خالتي صوفيا لكي أُريكي حجرتي، هذا سريري يمكنك النوم فيه، وهذه لعبي يمكنك اللعب بها، وهذه منضدتي تستطيعين الرسم عليها، وهذه هي أمي؛ إنها رقيقة جدًّا تستطيعين لمسها لتتأكدي من هذا.



تُرى ماذا يحدث لو أصبح الإنسان يتعايش مثل الميكي ماوس؛ يحمل نفس تعبيراته وله نفس ردود أفعاله الكرتونية، ينفخ يده ويكتب

نصًّا طويلاً يتجاوز الكيلو متر، ينبغي عليّ شراء سدادة لأذني وعصب عيني بقطعة قماش وأتنفس بأنفي لكي لا أحس ثانيةً بتلك الروائح التي تحيط بي، ربما يصلح هذا معي، لم أعد أستطيع رؤية أي طريق آخر للرجوع لكن أوليج لم يعد موجودًا معي، كما أنه يبعد عني بألف كيلو متر، لماذا يحب البعض أن يطلق على ريجا باريس الصغيرة بدلًا من ريجا الكبيرة ربما بسبب الطيور الفرنسية التي تأتي إليها في موسم الهجرة، تأتي الطيور.ويبدو شكلها كصراصير صغيرة خارجة للتو من أحد المستنقعات تطير كما في مشهد من مشاهد سفر الرؤيا[1].



لم أكن مقتنعة أبدًا بأي شيء ولم أكن متأكدة أيضًا من شيء، عندما يأتي الموت تتجمل الحياة، تتحول إلى نموذج آخر ثم تنتهي، لست مستعدة لذلك حتى الآن، فقط أصرخ بشكلٍ متباعد على فترات، أحاول فقط أن أرتب الأمور بشكلٍ دقيق لكي تتجمع قطع اللعب الصغيرة إلى جوار بعضها وتكمل شكل القلعة، لكن سوف تأتي تلك اللحظة التي تتساقط فيها القطع ولا تقدر الأصابع الصغيرة على جمعها من جديد، لم أعرف من قبل كيف أصنع رجلاً من الثلج أو القطن.



"سامحني يا أبي" فهذه هي العبارة الوحيدة التي أستطيع أن أتركها لك في نهاية يومياتي، ينبغي عليك محاولة لعب دور الأب من جديد ولكن يجب عليك ساعتها أن تعلم أبناءك ألا يصمتوا أبدًا، تحدث معهم كثيرًا

(١) سفر الرؤيا : أحد أسفار العهد الجديد دون عقب دمار مدينة أورشليم قرابة عام ٧٠ ميلادية. [المترجم]

بقدر الإمكان وحفزهم على ذلك، سامحيني يا أمي لأني لا أريد الرجوع لأني ما زلت صغيرة وأخاف من الصمت.

بعد كتابتي للجملة الأخيرة في هذه المذكرات سأحترق كليًّا.

الآن أذهب إلى المدينة حيث تكثر أصوات الضوضاء المزعجة وخاصةً هناك عند جسر السكة الحديدي عندما يمر القطار فوق القضبان، سأذهب لأشاهد هذا ثم أنتظر فترة وبعدها...

سأرى...!!

